معارك تفسير المقدس

رؤية أخرى

تأليف

عيد إسطفانوس

الكتاب: معارك تفسير المقدس.. رؤية أخرى

الكاتب: عيد إسطفانوس

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

إسطفانوس ، عيد

معارك تفسير المقدس.. رؤية أخرى / عيد إسطفانوس

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٣٨ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٥٧٩ / ٢٠٢٠

معارك تفسير المقدس
رؤية أخرى

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إلى كل من جبر خاطري في يوم من الأيام

مقدمة

في الميدان خضت معركتين، وكنت في الأنساق الأولى وكان النصر حليفي ، فقد كان عدوا خارجيا مرئيا واضحا مكانا وزمانا، أمكن التصويب نحوه بدقة وإصابته وإيقاف عدوانه، وكسنة الحياة انتهى دوري سلمت بندقيتي واستبدلت زيا بزي وودعت الجندية، وكنت أعتقد بأنني سأخلد للراحة بعد عناء لكنني اكتشفت أنني أدمنت خوض المعارك واكتشفت أيضا أن الحرب مع العدو في ميدان المعركة هي أيسر الحروب؛ فعندما تطلعت حولي وجدت وطنا يعج بالأعداء، وكان لزاما أن أستل سلاحي من جديد ..

أخرجت قلمي وبدأت حربا ضروسا طيلة العقد المنصرم خضت فيها معارك طاحنة ضد المدلسين الذين احتجزوا البشر أسرى مسبيين في سجون كبيرة، سجون بلا قضبان ولا جدران لكنها كانتونات حصينة لا يمكن الهروب منها، فالقائمون على حراستها أناس سوغ لهم خيالهم المريض أن العقائد يمكن تفسيرها بالعقائد، وأن ما ورد في كتب مقدسة عند أصحابها يمكن تفسيره بما ورد في كتب مقدسة عند آخرين، حراس كافرون بمبدأ التساوي الإنساني ودائما هم مشغولون بابتداع وتصدير أوهام التمايز الكاذب لبشر على بشر، وهم التمايز الديني والمذهبي والعرقي لمجتمعات يحتلها الجهل والفقر والمرض، ويتقاتل البشر لينسوا حاضرهم المتردي ومستقبلهم المجهول المشحون بالتعصب والانقسام والتخلف.

كما وأن معارك تفسير المقدس بالمقدس أصبحت معارك يومية دامية أشلاء قتلاها عرض يومي على كل الميديا في الجهات الأربع، وبالطبع يزداد عمق الهوة واتساعها كل يوم بفعل فاعل خبيث يتجه بقوة نحو هدف أكثر خبثا وهو الوصول إلى نقطة النهاية وهو استحالة العيش المشترك أو استحالة (العشرة) بين أعراق وأديان ومذاهب عاشت قرون طويلة منسجمة ولم يكن اختلاف العقيدة أو المذهب أو العرق يشكل كل هذا العمق السحيق وهذا الاتساع الهائل لهذه الهوة القاتلة، والنتيجة هى صراع الكانتونات المتفجر الآن، ولعل الصورة في العراق تنطق بحجم المأساة فبعد خمسة عشر قرنا من التعايش بين أعراق وأديان ومذاهب مختلفة كل الاختلاف عرب وفرس وكرد وعبرانيين وأشور وكلدان ومندائيين وأرمن وشراكسة، بعد كل هذه القرون من التعايش السلمي انفجرت أرض اللبن والعسل وتم تدشين وتكريس مظاهر الانفصام بين الأعراق في هذه المنطقة بدءًا من الأسماء وحتى الأزياء مرورا بمفردات التعامل اليومي بين الناس، وبالطبع هم يعلمون تمام العلم أنه – أي الانفصام – هو المرحلة التمهيدية اللازمة لبلوغ الهدف السامى أو نقطة النهاية أو الحل الحتمي وهو الانفصال والتقسيم، لأن الهوة تعمقت واتسعت ولم يعد في الإمكان جسرها، وقد وصلت مجتمعات إلى نقطة النهاية وبلغت الهدف المنشود، بلغته باقتدار ورأيناه رأي العين، رأينا الحل (الحتمي) في السودان حيث نحرت الذبائح في شوارع الخرطوم وأم درمان ابتهاجا (بتوحيد القبلة)، ورأيناه في الصومال مثال صارخ مثير للشفقة والسخرية ورأيناه في فلسطين وماتت بسببه قضية شعب، وجاري ترتيب سيناريوهاته (الحتمية) في العراق

وفي مصر، وفي نيجيريا وفي مالى وساحل العاج وفي سوريا وليبيا واليمن وغيرهم قادمون على نفس الدرب، ويبدأ فصل من المسرحية الهزلية الكاذبة الممجوجة بادعاء مؤمرات الغرب (الصليبي) على (العرب والمسلمين) والحقيقة أنه نفس الناتج الحتمي لنفس المعطيات، أي التمويل السخي المشبوه بهدف بث الفرقة والانقسام والفرز بين الأعراق، فكيف لنفس المعطيات أن تخرج ناتجا مغايرا؟

فعلى سبيل المثال لا الحصر هل كان يمكن للسودانيين أن يعيشوا معا متحدين مندمجين في ظل تمايز عرقي واستعلاء ديني وفرز عنصري وقهر ثقافي، والإجابة بالطبع لا وألف لا.

هذا هو الناتج الحتمي لمعارك تفسير المقدس بالمقدس ، حيث لا يستطيع أحد أن ينكر واقعا قائما، وهو الفارق الهائل بين عقيدتين ليس في الهوامش فقط لكن في المتون وهو صلب العقائد بدءًا من طبيعة المسيح وحتى تعدد الزوجات مرورا بشعر المرأة ولحم الخنزير بالإضافة للفوبيا التي تصنعها الميديا الخبيثة عن رموز وتعابير مثل الكنيسة والصليب والتثليث والتنصير والتبشير وغيره، حيث يتم استغلال هذه المفردات بذكاء وخبث شديدين في تعميق وتوسيع الهوة التي هي عميقة ومتسعة أصلا، وقد أصبحت بحرا من الكراهية والتعصب، حيث يتم دائما التعمية والتمويه على مبدأ الاختلاف ونفيه وكأنه خطيئة لا يجب أن يوصم بها أحد، مع أنه كان السمة السائدة لعصور نهضة زالت مع زوال فكر التنوير والقبول غير المشروط للآخر، حيث عاش الناس أعراقا وأديانا وثقافات ومذاهب عاشوا تحت المظلة الأم السابقة على كل التفرعات اللاحقة وهي مظلة

الإنسانية، حيث لم تكن ثقافة تفسير المقدس بالمقدس مستشرية.

ومع انحدار وانحسار مبادئ سامية لفلاسفة ومفكرين وفقهاء عظام قدامى ومحدثين كابن رشد وابن عربي ومُحَمَّد عبده والسنهوري وطه حسين وفرج فودة والبوطي والجابري وابن أركون، وغيرهم كثيرون، نقول انحسرت دعوات هؤلاء المجددين الذين آمنوا بحتمية الاختلاف بين البشر دينا ولونا وعرقا لأنها مشيئة الخالق ووصلنا إلى محطات التخلف والانقسام والإظلام وفقه البادية، حيث تسود اليوم مبادئ ابن تيمية وأبو الأعلى وابن عبد الوهاب، ومعهم المتفيقهون الجدد الذين دمروا مستقبل شعوب هذه المنطقة، وما صعود أسهم الأصوليات اليمينية في أوروبا إلا رد الفعل المتوقع والحتمي على الجانب الآخر بعد فشل كل المحاولات اليائسة البائسة المتخبطة لما يسمى بالحوار أو التقريب أو التعايش بين الأديان أو المذهب، وكلها فشلت فشلا ذريعا لأن الهدف غائم والوسيلة ملتوية، فالعقائد هي الإيقان بأمور وجدانية لا ترى ومستقرها القلوب لذا فإن محاولات مواءمتها أو مقاربتها أو تطويعها هو هزل لكنه هزل خبيث يهدف لتحويل الهوة إلى هاوية، وكان الأجدر أن يتم التركيز على ترسيخ مبدأ الاختلاف الحتمي المشروع حيث يجب أن يعيش الناس مختلفين: في العقائد شركاء في الوطن، في اللون شركاء في الإنسانية، في المذهب شركاء في المستقبل، في هذا وذاك وتلك شركاء في هذا الكوكب الذي استخلفهم الخالق في إعماره.

ومع أن الجميع يدعون الاعتقاد في وجود واحد لا شريك له (مالك ليوم الدين) أي اليوم الذي تصدر فيه الأحكام الحقة النهائية من القاضي

العادل الأوحد، فلماذا إذن يغتصب المتطرفون اختصاصه ويتعجلون إصدار أحكام الكفر والشرك على الآخرين المختلفين؟ مستخرجين نصوصا من سياقها ومدعين التفويض الإلهي والوكالة الإلهية، والحقيقة أنها وكالة مزورة؛ فهم وكلاء لآخرين يضخون أموالا بوفرة لهذا الغرض وهم ـ أي الممولون ـ في انتظار العائد المجزي وهو الحفاظ على أنظمة قمعية لا تستطيع الاستمرار إلا في بيئة بؤس وجهل وتعصب وعنف وانفصام وانقسام وصراع، وتلك بيئة لا تنمو إلا بثقافة تفسير المقدس بالمقدس، بيئة رعايا حريتهم وأرزاقهم هبة من ولي الأمر الذي لا يجوز الخروج عليه، والويل كل الويل لمن يفكرون في ذلك فسياط الفتاوى جاهزة لتلهب ظهورهم. ولأن الأشياء يجب أن تسمى بمسمياتها الحقيقية منعا للتغرير والتدليس فالقتل في سبيل الله هو جريمة في حق الإنسانية وحوارات الأديان هي جريمة في حق الضمير البشري والغريب أن هذه الحوارات لا تعقد أبدا في هذه المنطقة بل في منتجعات أوروبا والسبب مفهوم للقاصي والداني.

والذين يعتقدون بحلول توفيقية بين العقائد هم واهمون، فذلك لم يحدث على مر التاريخ ولا نعتقد أنه يوجد حلول وسط يمكن ابتداعها لجسر هذه الهوة لكن يمكن إقامة معابر عليها، وذلك يتطلب مؤمنين عن قناعة بمبدأ الاختلاف، مؤمنين بحتمية العيش المشترك في مجتمع متعدد الأعراق والأديان والمذاهب والثقافات، وهو ما نراه في كل المجتمعات الناهضة المتوحدة التي تحترم حرية وكرامة واختيارات كل إنسان، أما البديل فهو ما نراه في المجتمعات المحيطة من فوضى وتشرذم وعنصرية وتمييز وقهر

وفقر وقتل وحرمان.. إن كل صاحب ضمير ولو نصف حي يجب أن يخجل مما يحدث على هذا الكوكب.. إن هذه الدماء وهذه الأرواح وهؤلاء المشردين الجوعى العراة في المخيمات هم سبة في جبين الإنسانية كلها لأن حروب تفسير المقدس بالمقدس أصبحت مصدر يرتزق منها هؤلاء المفسرون الذين أصبحوا أمراء حروب يأمرون بشرا ليفجروا أنفسهم في بشر دفاعا عن مقدس أزاحوا عنه هالة القداسة وحوطوه بهالة من الدماء.

القارئ العزيز: إن كل الطروحات المنشورة في هذا الكتاب هي معارك حاولت فيها التصدي لدعاة العنف والكراهية، وقد قيض لي أن أجد منابر في الداخل والخارج لنشر هذا الفكر، والشكر للدار العريقة التي تبنت تجميع هذه الطروحات في هذا الكتاب.

يرجى من القارئ العزيز ملاحظة أن بعض الطروحات قد تخرج عن سياقها التاريخي نظرًا لتقادم الأحداث.

المؤلف

متوالية الخوف

كانت البوابة الخشبية العتيقة المتهالكة هي نسق الدفاع الأول والوحيد عن البيت الريفي المتواضع المخصص لناظر العزبة، البيت يشرف من شبه تل على بيوت القرية الصغيرة، كان من طابقين وحوائط سميكة من الطوب اللبن والأسقف عالية من الخشب وجزوع النخيل، في خلفيته تمتد باحة متسعة تعج بالطيور الداجنة ويمرح معها قطيع صغير من الماعز والضأن بالإضافة لجاموسة حلوب تقبع آمنة تجتر غذاءها في احد أركان الباحة القصية، أما على السطح فيصطف طابور طويل من الصوامع الطينية تقف شامخة تشي بما تحويه من مخزون أنواع البقول والحبوب وغير ذلك كثير من مظاهر الوفرة، كل ذلك كان وسط بحيرة، لا بل بحر من الفقر والحرمان وبالطبع كانت بقية أحوالنا الميسورة تميزنا عن بقية سكان القرية الذي كان تعبير شظف العيش هو تعبير مهذب للفقر المدقع الذي كان يعم الجميع، ومع كل هذا التباين الشديد في الأحوال لم يترسب في ذاكرتي أنا الصغير أنني نمت ذات ليلة خائفا، أو أنني استشعرت يوما أن هناك في الأفق تهديدا من أي نوع يحوم حول حياتنا أو أموالنا أو عقيدتنا أو ثقافتنا، ولم يكن أبدا هؤلاء الفقراء (المتدينون) الذين كانوا جميعا – عدا أسرتين أو ثلاث – من غير عقيدتنا.

لم يكن أبدا هؤلاء يوما حاقدين أو معتدين أو متعصبين، كانوا فلاحين فقراء قانعين سمحي الوجوه يزرعون السلام ويلقونه تحية على الناس

(قاصدين)، وكان ذلك أهم محاصيلهم، بالطبع عدا القطن والبصل والقمح والذرة، كان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما، وكان ناظر العزبة هو أبي والوظيفة هي مباشرة أحوال ما تبقى بعد الثورة من إقطاعية صغيرة لأحد أعيان المنطقة (من المسلمين)، لذلك وغيره لم أعرف من قبل هذا النوع من الخوف الدامي، هذا الخوف الجمعي من المستقبل حيث لم يعد الأمر يتعلق بحادثة هنا أو هناك يقتل فيها بضع عشرات، لكن الأمر بات يتعلق بمسألة الوجود أو العدم لأعراق بأكملها، أعراق أصبحت مستهدفة استهدافا ممنهجا بقصد إبادتها ماديا ومعنويا مستهدفة من قاتلين محترفين ممولين بتمويل هادر من معاقل الإرهاب، مسلحين بأسلحة تدمير شامل من معاقل التكفير.. نعم أسلحة تدمير شامل فتاكة هي نصوص مبتسرة من سياقاتها تحض وتحفز وتشجع وتدفع على الكراهية والبغض والعنف والقتل.. نعم تمويل سخي وهادر من هؤلاء القابعين في الصحراء يتحرقون شوقا في انتظار سقوط آخر قلاع الحضارة والمدنية والتعايش والتسامح في المنطقة كلها بعد سقوط العراق ولبنان وسورية..

نعم مصر التي يتحرقون شوقا لتصحيرها وتدميرها خشية تفشي عدوى الفيروس القاتل ووصوله لشاطئ الأحمر الشرقي، فيروس العدالة والتسامح والتحضر والعلم والتقدم والمدنية والمساواة..

هذا هو الفارق بين الأمان الذي عشت فيه طفولتي وبين مزارع الخوف التي تنمو اليوم في العقول والقلوب، وبالطبع سوف يكون حصادها المر ومنتجها الرئيس بغضا وكرها وحقدا وغلا ومقتا وعداوة، حيث لم نعد ننتج في أم الدنيا المحروسة شيئا آخر، فلم يعد ثمة قطن أو بصل أو قمح

وصرنا نستجدي الغلة العطنة التي تعافها الدواب في بلادها.

وموجات الخوف التي تهبط على أمة ربما يستطيع الكبار إزاحتها مؤقتا، لكنها تستوطن قلوب الصغار الذين يستشعرونه من كم المزاليج والأقفال والسلاسل والعيون السحرية على خلفيات الأبواب، بالإضافة للحزن والكمد المطبوع على وجوه الكبار، إلى جانب ما تشي به مظاهر الخوف السائدة في الشوارع من الأسوار العالية والحراسات الخاصة وكاميرات المراقبة وأجهزة الإنذار...الخ.

والذي يعتقد بأن جزيئات الخوف التي تنتشر في الهواء يمكن أن تستثني أحدا من أن تملأ رئتيه طفلا أو شابا أو شيخا، أغنياء أو فقراء، كثيرين أو أقلية، الذي يعتقد في ذلك فهو واهم، فالخوف عندما يبث في مجتمع يملأ كل الصدور قسرا حتى وإن بدا على بعض الوجوه عدم الاكتراث، فالظالم خائف والمعتدي خائف والمستبد خائف وكل صناع الخوف ومنتجيه ورعاته ترتعد فرائصهم، يخافون من أنفسهم ومن غيرهم، يخافون الكلمة الأخرى والثقافة الأخرى والعقيدة الأخرى والقبيلة الأخرى، ومن شدة خوفهم نذروا أنفسهم لإبادة كل ما هو آخر مختلف مغاير، ومع احترافهم لصناعة الخوف أصبحوا متمرسين على التمويه كما هم متمرسون على استخراج التأويلات والتبريرات التي يخدرون ويغيبون بها ضمائرهم.

وانتشار سوق الخوف في هذه البقعة المنكوبة جعله صنعة العاطلين فإنتاجه ميسور وكلفته زهيدة وعائده مضمون من أموال الرعاة ومن عائد

الميديا الجائعة والصفحات الحمراء المشبوهة في مطبوعات العنف والدم. وبمباركة الرعاة والتمويل السخي توحّش صناع الخوف وجودوا منتجهم وحولوه من درجة التخويف إلى الدرجة العالية الرفيعة درجة الترويع الدامي حتى يستوطن الخوف تماما ولا يغادر إلى الأبد تلك المجتمعات المقهورة.

والخوف يفقد الناس الثقة في المستقبل ويصبح العيش في أمان هدفا عزيز المنال يتطلع الناس إلى بلوغه بأية وسيلة، إما مغامرين بحياتهم يمتطون ألواحا خشبية متهالكة لعبور بحار هائجة أملا في العثور على شاطئ آمن، أو العودة للخلف لاجترار أزمنة أمان غابرة أبدا لن تعود فقد رحلت إلى الأبد مع مقوماتها من بيئة وبشر، أو القفز إلى الهاوية يأسا وقنوطا وهدم المعبد على رؤوس الجميع، هذا هو الحال في تلك المجتمعات الخائفة البائسة المقهورة، مجتمعات تسكن في أقفاص من الفولاذ هي تابوهات من غيبيات متوارثة تعيش فيها وبها مؤطرة بأنظمة فاسدة جاثمة على صدور البشر تتوارثهم كقطعان الإبل، قطعان تائهة لا تجرؤ على مغادرة الصحراء وإن حاولت فخطواتها ثقيلة جبانة مترددة سبيلها غائم وهدفها مفقود، وبتوالي موجات الخوف تختلط جزيئاته مع خلايا البشر ويصبح مكونا رئيسا في أجيال مفترض أن تقود مستقبل هذه المجتمعات وتخطط لها وتتخذ عنها قراراتها المصيرية.

إن استهداف بشر بسبب عقائدهم أو أفكارهم أو ثقافتهم هو تراث متجذر لدعاة استعباد البشر استعبادهم باسم الدين وهو الوسيلة المثلى التي يستخدمها الطغاة في القرن الحادي والعشرين لضمان أن يُساس هؤلاء المقهورون دون تذمر أو احتجاج أو عصيان وإلا هب فقهاء النظام

وألهبوا ظهورهم بسياط نصوص طاعة ولي الأمر وحرمة الخروج عليه، إن ممالأة هذه الأنظمة والتزلف لها بسبب ريالاتها هو إثم في حق هذه الشعوب التي سجنت قرونا وقهرت أزمنة وأهينت حقبا أبشع أنواع السجن والقهر والإهانة، منظومة حولت الرجال إلى مجرد عبيد والنساء إلى مجرد جوارٍ والأطفال إلى مجرد نواتج متعة تملأ الشوارع..

إن وطنا لا يوفر الأمان لساكنيه هو وطن هش، إن وطنا لا يجبر مكوناته على الاحترام المتبادل للعقائد والخصوصيات والثقافات لهو وطن مخترق يصبح مرتعا للفتن والتحريض وبث الكراهية، يصبح مزرعة للخوف والعنف والدم يصبح مستنقعا آسنا للفقر والجهل والمرض، وطن يصبح مستباحا عوراته مكشوفة ولا سبيل لسترها إلا بإعلاء قيم الحرية والكرامة والعدالة والمساواة بين كل من يعيش على أرضه، والذين يتحدثون عن تنمية وازدهار وتقدم هم كاذبون مضللون فصناع الخوف يعلمون تمام العلم تأثيره المدمر على كل مناحي الحياة بدءًا من سوق المال وحتى خلايا البشر. ويعلمون أيضا أن تسويق منتجهم المدمر مرتبط تمام الارتباط بتخلف هذه الشعوب وفقرها وجهلها.

لكن الفجر قريب، ثقوا يا من تبيتون ليلتكم حزانى باكين.. ثقوا أن الفجر قريب، ثقوا أن صانعي الخوف في عيون الأبرياء في مصر وفي لبنان وفي فلسطين وفي العراق وفي الصومال وفي السودان وفي أفغانستان وباكستان، وفي كل بقعة مقهورة وموبوءة بهؤلاء القتالين باسم الله والقتالين باسم الدين، ثقوا أن كل هؤلاء ورعاتهم ومموليهم ومشجعيهم سينالون جزاءً عادلا بحجم جرمهم في حق الإنسانية إن لم يكن عاجلا من الناس على

الأرض، فآجلا من الله العادل في السماء، الله الذي يسمع صراخ المظلومين المقهورين المسبيين في أوطانهم وفي غير أوطانهم بسبب عقائدهم أو مذاهبهم أو أفكارهم أو أعراقهم أو لون جلودهم، ثقوا يا من تبيتون ليلتكم عيونكم شاخصة على مزاليج أبوابكم وعلى أوتاد خيامكم وعلى مضاجع صغاركم، صغاركم النيام بعيون دامعة خائفة نصف مغمضة، ثقوا... الفجر قريب، ثقوا بأن هؤلاء المدلسين الذين يعتقدون بأنهم استطاعوا اختطاف ثورات الشعوب وتحجيمها وتحويل دفتها إلى عكس اتجاهها، ثقوا أنهم لن يستطيعوا اختطاف ثورات قادمة بعد أن تكون كل أوراقهم المزورة قد كشفت على الملأ، ثقوا بأن المصريين الحقيقيين – وليس مترددي الهوية – قادرون في ثورتهم التالية الأكيدة على كشف أساليب التقية الخبيثة التي تستهدف إيقاف عجلة الزمن عند عصور الاسترقاق والتخلف، استرقاق البشر باسم الله وتخلف الشعوب باسم الدين..

أسماء الأشياء

نحن نتحدث عن الأسماء الحقيقية للأشياء، حيث الأسماء هي الدالة على ماهية وكينونة ومحتوى الشيء طبقا للغة (ونحن هنا نتكلم عن المادي والمعنوي) فالشيء بدون اسم هو مجهول مغلق على الفهم فاقد الدلالة والاعتبار، والأسماء وبسبب تراكمها التاريخي في الذاكرة تكون علاقة اندماج عضوي بين الشيء واسمه، علاقة يصعب فصلها، ودليلنا أن إطلاق أسماء جديدة على أشياء تجد مقاومة شرسة، ويظل الاسم القديم هو المرادف الشائع، ونظرة على أسماء بعض شوارع في القاهرة مثلا أطلقت عليها أسماء جديدة إلا أن الأسماء القديمة ظلت تقاوم الزمن حتى اليوم، قضية أخرى وهي قضية تحول وتآكل المدلول اللفظي للأسماء، ويبدأ المعنى في الانحراف والتحور التدريجي وربما يصل للنقيض، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ثقافة المناورة اللفظية التي تنتشر في منطقتنا، وبالقياس يتضح أن أسماء الأشياء في هذه المنطقة من العالم أصبحت أقرب إلى الإسقاطات: إسقاطات دينية وسياسية واجتماعية وثقافية، وخصوصا التعبيرات الدالة على القضايا الخلافية، بالإضافة لثقافات فقهية متطرفة وهي ثقافات تشجع على الهروب والتلون والزيف والكذب تحت حماية نصوص دينية تم لي أعناقها.

كان لا بد من هذا المدخل لنعرف مدى واقع الزيف الذي وصلت إليه هذه الشعوب، واقع خلفيته الكذب والتضليل في تسمية قضاياها

وخصوصا تلك القضايا المزمنة؛ فإطلاق أسماء مزيفة عليها هو اختباء جبان من مواجهتها وجعلها عصية على الحل وفقدت التعاطف الدولي والإنساني، وسوف نسوق للقارئ بعض المقاربات لندلل على صدق ما نقول.

أولا القضية الرئيسة، وهي قضية الصراع العربي الإسرائيلي، وقد كان صراعا بحتا على الأرض، وتم التحكيم فيه والتقسيم الواقعي المتاح، إلا أنهم وكعادتهم في إطلاق الأسماء المزيفة رفضوا القرار وبدلا من القبول بمبدأ "ما لا يُدرك كله لا يُترك كله" الذي كان يتيح لهم أكثر من نصف فلسطين تم تحويل دفة الصراع إلى صراع عقائد يقوده متطرفون على الجانبين حريصون على بقاء الوضع على ما هو عليه، وضاعت فلسطين وأصبح ربع ما كان معروضا هو الأمل الذي يكافح الأشاوس من أجل تحقيقه، وليته كتلة واحدة لكنه أشلاء متناثرة، والسلاح الوحيد المتاح هو استمرار تديين الصراع، لأن هؤلاء المتطرفين المتعصبين لا عمل لهم إن لم يكن هناك قضايا من هذا الطراز، لأن مهنتهم الأولى هي العزف على أوتار النصوص لشحن أكبر قدر من الكراهية في القلوب والعقول وتكوين جيش من الأتباع المغيبين الجهلة المتعصبين بصيرتهم أغلقت عن رؤية الواقع من حولهم.

القضية الثانية، وهي الوضع في العراق، وأيا ما كانت التسميات المتداولة فالحقيقة أن جذوره هي صراع شخصي بين صدام حسين وبعض حكام الخليج وخصوصا بعد مغامرة الكويت الفاشلة، وبالطبع اقتنص الشيعة والأكراد المقهورين الفرصة واستدعوا أمريكا، وأطبق الجميع على

رقبة صدام وهم لا يدرون أنهم أطبقوا على رقبة العراق كله، وسقط صدام وسقط معه العراق ونال حكام الخليج مبتغاهم ودفع ويدفع وسيدفع العراقيون الثمن مضاعفا، وبالقياس على العراق نجد نفس السيناريو في سوريا بنفس المشاهد وبنفس الشخوص العداء لبشار الأسد، ويركب الإخوان والأتراك الموجة ويستدعون أمريكا وتنفجر سوريا أعراقا ومذاهب وإثنيات، وكل ذلك لا يهم، المهم سقوط بشار وليحترق السوريون، فلا يهم ما يحدث للشعوب، وأصبحت سوريا والعراق ملهاة ومأساة ومسرحا للكذب والتدليس يعرض يوميا على الميديا مسرحية عبثية من الطراز الأول، نساء سبايا وأطفال مشردون وخيام مهترئة في صقيع البوادي ورجال ديست كرامتهم، وتحللت أوطان بفعل فاعل خبيث تحت زعم الثورة.. وإن كانت سوريا لا تزال عصية؛ فقد نجح السيناريو في ليبيا، نجح نجاحا باهرا فقد سقط عدو الملوك والأمراء الأول سقط القذافي، وسقطت معه ليبيا سقوطا مروعا لسنا بحاجة للتدليل عليه.

قضية أخرى أطلقت عليها أسماء كثيرة من نوعية تلك الأسماء الكاذبة، وهي قضية حوار الأديان، أو حوار الثقافات، أو حوار الحضارات، وأسماء أخرى كثيرة، وهي قضية مثالية للتدليل على ما نقول؛ فهذه التسميات أو هذه التعميات هي التضليل بعينه، تضليل الشعوب عن الاسم الحقيقي لهذه المسرحية الهزلية وهو الرفض العنصري لقبول الآخر، وأن هذه المحاولات البائسة والأموال الباهظة لن تخفي الوجه الحقيقي والاسم الحقيقي للقضية، وهو وهم التمايز الديني والمذهبي واحتقار الآخر في مجتمعات مشبعة بالعنصرية كما تتشبع قطعة من

الإسفنج الجاف بالماء.

تسمية أخرى لقضية محيرة وهي ما يطلق عليه "الربيع العربي"، وأنا لن أعلق على هذه التسمية المدلسة لكني سأترك لكم وصف الإحساس بهذه الرياح الساخنة التي تلفح الوجوه من كل اتجاه، وهل هذا الدخان الأسود الكثيف الذي يغطي المنطقة هو جو الربيع، الربيع الطلق الذي كان يأتي ضاحكا، أم هو مؤامرة كونية لإبادة هذه الشعوب، والأمانة تقتضي القول أنه كانت هناك إرهاصات للتغيير في المنطقة كلها، وأظنها مازالت لكن ما حدث كان غير ذلك على الإطلاق والأيام ستكشف عن تسمية حقيقية لهذه القضية وعلى الأقل لن يكون لكلمة الربيع وجود بين هذه التسميات.

وما ينطبق على الأشياء ينطبق على الأشخاص، ولدينا مثال صارخ على ما نقول فلا ينادى على امرأة في العالم العربي كله باسمها الحقيقي أبدا، بل ينادى عليها باسمها المزيف: ولي أمرها أو ابنها أو أبوها، أما الاسم الحقيقي لهذه القضية فهو احتقار إنسان بسبب جنسه، هل تريدون مثالا أوضح من هذا على المراوغة وتسمية الأشياء بغير أسمائها: أشياء وأشخاص، تلك عينة من الأسماء المزيفة للأشياء، الأسماء التي أدمناها من كثرة تعاطيها، وتاهت الأسماء الحقيقية أو تم التشويش عليها وضاعت القضايا وسط ضباب الكذب والزيف.

أما عن قضية الساعة؛ فحدث ولا حرج، فبنفس الأسلوب يطلقون عليها ما يحلو لهم من تسميات وكلها تسميات مزورة مرة تطرف ومرة

تشدد ومرة غلو ولأسباب خبيثة وأهداف أخبث ستظل هذه التسميات أو هذه التعميات هي المتداولة إلى أن يخرج مصلح مجدد شجاع ينقذ هذه العقيدة من أتباعها، وينفض عنها ما علق بها من عصور الانحطاط والتخلف، ويسمى الإرهاب باسمه الحقيقي وهو أن ما على الساحة الآن ليس إرهابا لكنه نموذج مقترح للدولة الدينية، والغريب أن البعض يفغرون أفواههم ويتصنعون الدهشة كذبا، وكأنها مفاجأة، وكأنهم كانوا ينتظرون نتائج تختلف عن المقدمات، فكيف لمن زرع وسقى ورعى إلا أن يحصد محصولا وفيرا من جنس البذرة التي زرعها، بذرة الكراهية والتعصب والتمايز والكذب وهي الأسماء الحقيقية لكل قضايا هذه المنطقة المنكوبة من هذا الكوكب المنكوب بها.

أقواس النصر المفخخة

في الفجر صحا الناس على صوت الشاحنات الهادرة تخترق طرقات القرية الترابية الضيقة ثم توقفت أمام (دوَّار) العمدة، صعد الأهالي على أسطح المنازل للاستطلاع، وكان المشهد كالآتي: يقف الضابط وأمامه العمدة والخفر مصطفون بسلاحهم وأمامهم شيخهم، الضابط يتلو أسماءً من ورقة وما إن ينتهي الضابط من نطق آخر حرف من الشطر الثالث من الاسم يجري أحد الخفراء مسرعا إلى ناحية من نواحي القرية، وما هي إلا دقائق حتى عاد كل خفير ممسكا بتلابيب شخص، وصعد الجميع إلى اللواري وغادروا إلى الأبد، وعاشت قريتنا هادئة لعقد كامل من الزمن (أو هكذا كان انطباعي وقتها)..

تلك كانت عينة من قبضة عبد الناصر القوية على زمام الأمور في كل بر مصر, وفي الوقت الذي كان فيه صدام حسين يتسكع في شوارع القاهرة بعد المحاولة الأولى الفاشلة لاغتيال عبد الكريم قاسم والتي أشيع وقتها أنها كانت من تدبير عبد الناصر ورفاقه، ولعل فتى العشرينات المتأثر بأفكار ميشيل عفلق ورفاقه من طليعة البعثيين، لعله وقع أيضا تحت تأثير الآلة الإعلامية الجبارة لجمال عبد الناصر، تلك التي كان يقودها هيكل من الأهرام، وأحمد سعيد ومحمَّد عروق من صوت العرب، وربما كان الشاب منبهرا أكثر بطريقة أستاذه في (الإمساك الحازم) بزمام الأمور بقبضة من حديد، منبهرا أيضا بصعود نجمه إلى عنان السماء..

وربما قرر في نفسه أن يسلك نفس الطريق، وقد كان، فبعد أن أزاح عبد الناصر أستاذه وقائده مُحَّمد نجيب واعتلى السدة، كذلك انتظر صاحبنا الفرصة المواتية حتى حانت بعد ربع قرن، وأزاح قائده ومعلمه أحمد حسن البكر، واعتلى السدة وطبق الأسلوب البعثي في (الإمساك الأكثر حزما) بالأمور، وتفوق بجدارة وحكم بالحديد والنار وأحيانا (بالغاز)، وكانت باكورة قراراته بعد أسبوع واحد من تولي رئاسة العراق (رسميا) هو مذبحة يوليو الشهيرة، والغريب أنها كانت في ذكرى ليلة قيام الثورة التي قادها ملهمه جمال عبد الناصر.

وبرغم رأي الكثيرين المخالف، فالموضوعية تقتضي القول بأن حقبة عبد الناصر في مصر وحقبة صدام في العراق، كانتا على درجة من الازدهار الثقافي والاقتصادي والاستقرار المجتمعي، مما لا نستطيع إنكاره بسهولة، وكذلك لا نستطيع تفسيره بسهولة أيضا.

والغريب أن الأعراق والإثنيات والأديان التي تتناحر الآن بكل وسائل العنف، رضت وقبلت بعضها البعض، وربما كان ذلك على مضض لكن في نهاية الأمر هم تعايشوا في الحقبتين وفي البلدين دون مشاكل تذكر، ومما هو جدير بالاعتبار أن الرجلين لم يستخدما الدين ستارا سياسيا في أي من مراحل حكمهما، بل على العكس تخلص عبد الناصر من تلابيب الإخوان في أول فرصة، وحجّم صدام حسين المرجعيات الدينية ووضعها في الإطار الذي ارتضاه لها وارتضته هي أيضا لنفسها، وإن كان هناك جدل عن احتكار العرب السنة لقسم كبير من السلطة والثروة، وبالتالي تهميش الشيعة والأكراد، مما شجع على نمو الضغائن المدفونة لعقود تحت الأرض،

كما كان هناك أيضا عامل مشترك بارز في الحالتين وهو العصر الذهبي للمسيحيين على ضفاف الأنهار الثلاثة.

لهذه العوامل وغيرها الكثير، كانت سيرة هاتين الشخصيتين المثيرتين للجدل، هي من أبرز ما يمكن الاعتداد به عند مناقشة تاريخ حقبة من أهم الحقب تأثيرا في مصير أمة العرب، وهي النصف الأخير من القرن الماضي، الذي اقتسمه الرجلان متتاليين على قيادة قوتين، من أهم القوى الفاعلة في المنطقة في ذلك الوقت، ودون فاصل زمني تقريبا (في الفترة من وفاة عبد الناصر وحتى تولى صدام الحكم كان هو اللاعب الرئيسي في حكم العراق)، وإن كان لكل منهم رؤيته المغايرة لاعتبارات عقائدية وفكرية كثيرة.

وقد تضافرت على الرجلين عوامل كثيرة داخلية وخارجية حتى لا يحصل أي منهما على نصر حاسم في حياته، وإن كان عبد الناصر قد حصل على نصر شعبي أكثر منه سياسي أو عسكري في العدوان الثلاثي، إلا أن صدام انتظر طويلا وأنهكته الحرب مع إيران، وخرج متوترا ليبدأ في البحث عن نصر في أي اتجاه وبأي ثمن، وظل الرجلان طيلة فترات حكمهما تشغلهما هذه القضية فهما زعمان ذوا كاريزما لكنهما بلا نصر واحد حاسم يدخلان به التاريخ.

لذلك وغيره لم يصمد عبد الناصر أمام بريق أقواس النصر التي كانت تتراقص أمام عينيه على أبواب القدس في كل عرض عسكري، تغذيها هتافات مدوية لجماهير أسكرتها نبرات صوته الموحية بالثقة المؤكدة في

النصر، ولعل هذا الحلم المؤجل هو الذي صور الرجل دائما في مشهد المتأهب لالتهام إسرائيل (الوديعة)، ودخول القدس خلال ساعات ورغم غلالة دخان تحجب نصف الحقيقة في هذا الموضوع، إلا أن النصف الثاني كان واضحا جليا، فقد كان الجميع مندفعين إلى مخاطرة لم تكن بأي حال محسوبة، وإن كان من الناحية النظرية البحتة، تقول الشواهد أن قوس نصر ضخما مزينا كان في مرمى البصر.

وعندما اكتملت خبرات النقل والإمداد والتموين وإعادة التمركز للجيش المصري من عمليات اليمن، وهي الخبرات التي كانت تنقصه بشدة بعد تحديثه، عندما اكتملت تلك الخبرات جعلت القادة الشباب يبدون في آخر العروض العسكرية، وكأنهم يدشنون اللمسة الأخيرة في الإعداد للحرب، التي بدا وكأن عبد الناصر ورفاقه يدفعون إليها دفعا، وربما كانت الدفعة الكبرى هي من داخل اللا وعي، وهو الشوق الدفين للسير بالنياشين والمارشات العسكرية على الأبسطة الحمراء وعبور الحلم المراوغ، قوس النصر المزين بأكاليل الزهور، وحدثت الفاجعة وبعدها مات عبد الناصر..

ولم يصمد صدام حسين كثيرا أمام وهم خلافته، وخصوصا بعد أن ثبت عدم صلاحية آخرين حاولوا ارتداء القميص لكنه كان فضفاضا عليهم، يحتاج إلى كاريزما من نوع خاص ظن الرجل أنه يمتلكها بحجم جسمه واتساع ملامح وجهه وشاربه الكث، ولما اطمأن أنه المرشح الوحيد بدأ هو الآخر في البحث عن غزوة وأقواس نصر لتعويض هزيمة أستاذه، لكن هذه المرة انتقل قوس النصر لاعتبارات يطول شرحها من أبواب

القدس إلى أبواب فارس، لكن فارس عصت وأرهقته فاضطر للبحث عن ضحية مستأنسة ليبتلعها، ورغم التحذيرات ابتلع الإمارة الصغيرة لكنها انفجرت في جوفه وكان الانفجار مروعا.

وفي الطريق (أشاوس) جاهزون بنفس السيناريو لتقديم أوطانهم على طبق من ذهب للشيطان، ذبائح دموية على مذبح الشهوات النرجسية المتعطشة لمارشات النصر وأكاليل الغار، ينتجون أطنانا من الهراء عن أسلحة سرية وقدرات خارقة وطير أبابيل ستنقر جماجم أعدائهم، ثم نفاجأ بالبيان الأول: (علوجهم على مشارف المدينة) ثم تدفع الشعوب المغرر بها الضريبة الحتمية، تنفجر من الداخل ويبرز تجار الموت وتضيع حقوق البشر ويهان الإنسان ويدفع الجميع الثمن فادحا، ثمن نزوة شخص هي الناتج الطبيعي لديكتاتوريات ساقت شعوبها للدخول في أنفاق مظلمة، كما تدخل قطعان الدواب التائهة إلى حقول الألغام..

ثم تبدأ وصلات النواح على اللبن المسكوب، فقبل يوم واحد من السقوط في الفخ المتقن في الخامس من حزيران، كان معنا دولة يستغرق إنشاؤها ساعة واحدة في اجتماع واحد بين عبد الناصر والملك حسين والشقيري، لكننا كنا أسرى المبدأ المدمر "ما لا يُدرك كله الآن يُترك كله"، لا حلول وسطى ولا طرقا أخرى بديلة تبلغ الأهداف ولو مرحليا، إما كل شيء أو لا شيء، وفي كل الأحوال كان لا شيء، إنها ثقافة صراع القبائل في البوادي، التي لا تتعدى خسائر المعارك فيها سوى بعض الخيام والإماء وبئر أو بئرين وبعض الماعز، والذي يعتقد أن نكبة فلسطين كانت باكورة الحصاد المر لهذا المبدأ التراثي المتجذر، فاته أن المبدأ كان حاكما لمسارات

كثيرة في تاريخ هذه الأمة، أوصلها لما هي عليه بدءا من فجر الدعوة وصراعات الخلافة مرورا بالخروج من الأندلس وحتى غزو الكويت.

ولإخلاصه وعفويته وطموحه وشعبيته وأهدافه النبيلة كان التاريخ رحيما بالأول، كافأه بالموت على سريره يحوط به أحباؤه ومريدوه، لكن بعد أن ضاعت بقية القدس أو بالأحرى بقية فلسطين، ومعها نصيب مصر من قارة آسيا، وتقلص حلم الورثة من قوس نصر على أبواب القدس إلى مجرد معبر متحرك على القناة..

أما الثاني فكانت نواياه مبهمة، قهر أعراقا بدعاوى مشكوك في صحتها، وجيّش كل جيرانه عليه وعاش فاغرا فاه متلمظا لابتلاع ما حوله، وعامل جيرانه كبدو أثرياء وتعالى عليهم بنظرات فوقية، وركبه جنون العظمة في أواخر أيامه، وفي مثل هذه الأيام من ستة أعوام دفع ثمنا باهظا جدا فاق بكثير ما كان يتمناه له ألد أعدائه، وضاعت أحلام إمبراطورية الرئيس القائد ومعها ثروات شعب ودولة وأرض وتراث.

ومات الرجلان ولم يحصل أيٌّ منهما على نصر حاسم، اشتاقا إليه كثيرا ولم يقدر لأيٍّ منهما أن يمر من تحت قوس النصر الذي داعبه سنين طوالا، وإن كان الأول عوضه ينابيع دموع المصريين الغزيرة التي كانت رغم الهزيمة المرة مازالت ترى فيه المخلص المنتظر.

أما الثاني فلم يكتف أعداؤه بقتله في مشهد دراماتيكي عنيف، فاق مشاهد قتل نوري السعيد وعبد الكريم قاسم بمراحل، لم يكتفوا بذلك وإنما اجتثوا كل ما يمت له ولنظامه بصلة، بدءًا من عائلته وحتى تماثيله وصوره،

قتلوه في ليلة عيد متشفّين شامتين ليس في شخصه فقط، وإنما في عرقه كله وانفجرت ينابيع الدماء في الشوارع.

والأمانة تقتضي القول أنه بحكم إعجابي الكثير بالأول، وتعاطفي أحيانا مع الثاني، لا أستطيع ادعاء الحياد في هذا الطرح، فلست مؤرخا ولا شارحا للتاريخ، وإنما مجرد إنسان دون انطباعا – ربما غلبت عليه العاطفة – عن صعود وهبوط نجمين لاثنين مختلفين من البشر. عايشت حقبتهما كاملة، حركا أحداثا كبرى أثرت ومازالت وستظل تؤثر في مسار تاريخ هذه الأمة.

ولو طوع الاثنان أو حتى أحدهما مبدأ "ما لا يدرك كله الآن يترك كله"، إلى مبدأ "ما لا يدرك كله الآن لا يترك كله الآن"، فقد يدرك في المستقبل، ولو كبح أحدهما أو كلاهما جماح الشهوة المدمرة، شهوة عبور أقواس النصر (المفخخة) لعشر سنوات أخرى فقط لتغير وجه التاريخ تماما إلى النقيض.

الثائر (الكيوت)

وتعبير (كيوت) هو تعبير مستعار من صفحات الميديا الشبابية المنتشرة هذه الأيام في مصر، ولا أعرف إن كان هذا المصطلح واسع الانتشار في المجال الجغرافي للمنطقة أم لا، وتفسير الكلمة وعلى قدر إلمامي المتواضع بمفردات لغوية مستحدثة هو: الشخص العاطفي المثالي رقيق الملامح الذي لا يميل إلى العنف، أو هكذا أعتقد..

وهنا يبرز التساؤل الحذر: هل ينجح شخص أو مجموعة من الأشخاص يتحلون بهذه السمات (الراقية) في صناعة احتجاج أو تمرد أو ثورة أو ما شابه، والإجابة على هذا التساؤل جاءتنا عبر صور الحراك الذي اجتاح لبنان في الأيام الماضية، وعلى استحياء تم وصفه بالثورة، تيمنا بالموجة العاتية التي اجتاحت وتجتاح المنطقة، لكن لبنان له خصوصية يتفرد بها عن كل دول المنطقة دون استثناء، مما جعل هذا الحراك مختلفا؛ فقد كان أقرب إلى فعاليات فنية منها إلى مظاهرات: رقص وغناء ورسوم جدارية، وتبنوا مبدأ السلمية، أولا لأن كلهم أو جلهم يبدو عليهم تلك السمة التي أسلفنا توضيحها، ثانيا لأنهم يعلمون أن هناك ميليشيات مختبئة وعنيفة جاهزة للانقضاض عليهم في أي وقت، وقد حدث، ثالثا لأن المكون اللبناني العرقي والثقافي والاجتماعي والديني خليط يبدو للوهلة الأولى أنه مركب ذائب في بوتقة، لكن الحقيقة أنه كذلك بتأثير عوامل أو بالأحرى ضغوط منها وعلى سبيل المثال ذكريات الحرب الأهلية المؤلمة، ومنها

التوازنات الدولية وتأثيرها، ومنها اتفاق الطائف وغيرها كثير، لكن هذا الخليط في أحايين كثيرة تظهر فصائله منفردة متمحورة ومتمترسة حول وخلف مرجعياتها المذهبية والسياسية وحتى العرقية.

تلك كانت مقدمة نمهد بها للإدلاء بدلونا في هذا الموضوع الشائك، فالثورة يجب أن تكون على نظام حكم ارتكب أخطاء يتوجب معها تنحيته ومن ثم محاكمته، لكن في لبنان لا يوجد نظام حكم ـ وهذا رأي شخصي ـ لكن توجد معادلة أشبه بمعادلة رياضية أو كيميائية أي تعديل في أحد أطرافها يقلب ناتجها رأسا على عقب، فكل طرف قابض على رقمه وأي تفريط فيه أو في جزء منه هو خيانة للطائفة، فالبرلمان للشيعة المدعومة من طرف، ورئاسة الوزراء للسنة المدعومة من طرف، ورئاسة الدولة للمسيحيين المدعومين من طرف ثالث، بالإضافة لمكونات فرعية أخرى لها نصيبها المقنن بحسب آخر اتفاق وهو الطائف، وكل طرف من هؤلاء له بقعة من الجغرافيا هو الغالبية فيها وله ميليشيات بعضها صريح وبعضها مستتر..

وفي لبنان وضع سياسي شاذ لا مثيل له؛ فأنت لا تعرف من يحكم وكلهم (رئاسات) حتى الجيش مكبل بتوازنات طائفية.

نعود إلى هؤلاء الشباب الكيوت ـ وعذرا لم أجد جمعا لهذه الكلمة ـ فعادة هم الموجة الأولى التي تبدأ أي حراك مسلحين بهواتفهم الذكية ومتمترسين في خندق الميديا، رأيتهم بعيني في مصر نفس الموجة ونفس الملامح، وهؤلاء نموا وترعرعوا خارج معادلات هذه النظم المتكلسة التي

سئموها وملوا وجوه شخوصها التي بدت لهم وكأنها وجوه أزلية أبدية غير قابلة للتغيير، سئموها وملوها لأنها أغلقت عليهم أبواب الأمل في غد مختلف، أغلقت عليهم أبواب المشاركة في صنع مستقبلهم، فهم جاثمون على صدورهم منذ عقود ولدوا على صور بري ونصر الله وعون وجعجع وجنبلاط والحريري.

وفي رأيي أن تغييرا سلميا في لبنان بالذات لو حدث سيكون أشبه بمعجزة؛ فهؤلاء الشباب بخصالهم وسلوكهم الراقي لن يستطيعوا الوقوف في وجه ميليشيات مؤدلجة من القتلة المحترفين صناعتهم الارتزاق من حماية هذه الطُغمة من كهنة الطوائف وبقاء الوضع على ما هو عليه.

الثنائية المعجزة ..الفقر والسلام

عندما ارتديت زي الحرب أول مرة، وأقسمت تحت العلم على الدفاع حتى الموت عن هذه البقعة من الجغرافيا، لم أندم يوما على هذا القسم، وحافظت على كل بنوده، وأعتقد بأنني أديت دوري كاملا في آخر الحروب، وكان موقعي في الأنساق الأولى، وكان النصر حليفي. ولم أندم أبدا على هذا العهد لأسباب عدة، منها أن الرجل الذي صادق على منحي شرف الدفاع عن هذا الوطن كان ولا يزال رمزا للحرية والكرامة، نما حبه في قلبي الغض مع سني مراهقتي الأولى، سبب آخر أردده في كل طروحاتي: أن هذه الأرض هي أرض أجدادي، أملكها بصك لا يستطيع كائن أن يشكك فيه، لذا عشقتها حتى الثمالة، وأعطيتها زهرة عمري، وحاربت لأجلها وفرحت لأجلها وحزنت لأجلها، لأني لم أشعر فيها يوما أني من أقلية، ليس لرغبة الأكثرية في ذلك، وإنما لأني لم أسمح لهذا الشعور البغيض أن يتسلل إلى روحي، وعندما كنت ألمح بادرة من هذا النوع المقيت تحوم في فكر أحدهم، ينتفض بداخلي وحش كاسر، لا أملك السيطرة عليه حتى ينسحب الجميع أمامه مذعورين، بينما الدهشة تكسو وجوههم، وفي المقابل لم أسمح لنفسي أبدا بأي شعور استعلاء أو تمايز على إنسان، أي إنسان أيا كان لونه أو دينه أو عرقه، وأعتقد أنني كسبت احترام كل من يقدس الحرية، وكل من يحترم العقل ويؤمن بالمساواة بين البشر كل البشر، وكانوا كثر.

السبب الثالث والأهم هو أحداث جرت خلال عقد من الزمن هو العقد الثاني من عمري، أحداث تمحور حولها كياني كله ولم تفلح أية تراكمات أخرى طوال نصف قرن من أفراح وأتراح أن تزحزح أو تمحو أيا من تفاصيلها حتى الصغيرة منها، هذه السنين العشر المحفورة على لوح ذاكرتي هي خبيئتي المدفونة التي أعود إليها وقتما أريد وخصوصا في الأزمات، أقلبها وأتأملها وأغسل فيها همومي وأحزاني، وكنت أتمنى لو أصبحت رساما حتى أستطيع أن أجسد لكم هذا المشهد المبهر الذي مضى عليه أكثر من نصف قرن، هذا المشهد المحفور في عظام الجمجمة، كجدارية لأسطورة قديمة، وهي أسطورة لأن الحكي عنها في هذا الزمان كالحكي عن كائنات من كوكب غريب، ولولا أنني كنت أحد شخوصها الفاعلين أحيانا لكنت قد تشككت في حدوثها من الأصل.

كالعادة وفي أواخر (السنة التوتية) يتم الفيضان انحساره عن ضفتي النهر في هذه البقعة من الصعيد الأدنى، لكن مرات كان يتلكأ فيلحق بالأسابيع الأولى من بدء الدراسة، وكان عليّ أن أصارع مع دابتي العجوز كل صباح لاجتياز بعض البرك والمخاضات التي نسيها النهر عند رحيله، تطاوعني دابتي أحايين، وتنصاع لتوجيهات عصاي الصغيرة، وحينا تقاوم بشدة وإن لم ينقذني أحدهم يضيع اليوم الدراسي بسبب عنادها، ودابتي العجوز كانت وسيلتي للذهاب إلى مدرستي، وكنا نقطع معا كيلومترات خمسة ذهابا ومثلها إيابا، يكون النهر عن يساري في الصباح ذاهبا يؤنسني تياره الراحل إلى الشمال، ويعود عن يميني في الظهيرة عائدا، أقابل مياهه القادمة من الجنوب، وكانت رائحته تملأ خياشيمي اليوم كله حتى من نافذة

فصلي المطلة عليه.

وحين يتم النهر انحساره مع انقضاء آخر أيام (النسيء) يترك الضفاف الممتدة مكسوة بالغرين الصافي بلونه العنبري الغامق، ومن ثم تبدأ في التماسك ويشتد قوامها رويدا رويدا، ويبدأون في زرعه ولا يكلف الأمر سوى محراث وبقرتين، لا مياه ولا سماد حتى حصاد بقول وثمار هي الأجود والأشهى على الإطلاق في كل ما تذوقت في حياتي.

وكان الصغار من أقراني يتحلقون حول دابتي في رحلة العودة، متضرعين لأنزل وأفتح لهم حقيبتي ليروا الصور في كتبي، ولا ينسوا أن يدسوا خلسة في حقيبتي من بواكير زرعهم، الذي مازال مذاقه الشهي مطبوعا في سقف حلقي منذ نصف قرن، وإمعانا في إكرامي تنال دابتي نصيبها من الغذاء والرواء واستراحة لا بأس بها، ثم نبدأ وصلة لعب برئ تذوب معها كل نظم العزل الكريهة الشائعة الآن على كل الساحات: الذكر والأنثى، والغني والفقير، والمسلم والمسيحي.

وفي تلك الأيام كان الزعيم يصدح مغردا صباحا ومساءً، والجماهير تلتف حوله كمبعوث إلهي لإنقاذ هذه الأمة، وكانت أم كلثوم تغني للحب والسلام، وعبد الحليم يغنى للمسيح والسد والثورة، وعبد الباسط يقرأ القرآن في الثامنة مساء يوم السبت (طبقا لجدول الإذاعة)، وطه حسين يحدثنا مساء الأربعاء عن اللغة والوجود والعقل، وكيرلس السادس يجوب القرى والنجوع بلا حراسة، وينحني إمبراطور إثيوبيا ويقبل يده، ونتجاور (مسلمون ومسيحيون) في مدرسة (المسيو صموئيل)، وفي كتّاب (الشيخ

عبد العليم)، وسينما (ماتينيه) يوم السوق الأسبوعي للفلاحين القادمين من الأطراف، والتذكرة ومعها قطعة حلوى بقرش واحد، وكانت الأفلام: "رد قلبي"، و"الناصر صلاح الدين"، و"الأرض"، و"الزوجة الثانية"، والمارشات العسكرية من صوت العرب تليها أخبار صواريخ القاهر والظافر، ومسرح البالون والعشرة الطيبة والليلة الكبيرة، ومسرح التليفزيون والناس اللي فوق، والفقر الذي كان يعم الجميع، والسلام الذي كان يعم الجميع أيضا، السلام الذي كان علامة بارزة لا تخطئها عين، فلم يكن هناك جرائم ولا زنا محارم ولا فتن ولا قتل ولا فساد ولا إرهاب، ورأيت بأم عيني من كاد يموت جوعا ولم يسرق أبدا، ولم يعتد أبدا، ولم يكن يملك من العقيدة سوى ثوابتها التي امتلكها بالفطرة، وسيج حولها في قلبه قلعة حصينة، فلم يكن هناك مفتون ولا متفيقهون في ذاك الزمن الجميل، ورأيت بعيني كيف كان الناس يحبون الناس، ويعيشون أعراقا مختلفة، عرب وقبط وأمازيج وبدو يعيشون على الفطرة ولا يتعايشون على مضض، كما يعيشون هذه الأيام متنمرين بعضهم لبعض، هذه الأيام الحبلى بالدماء، وأود لو يجيبنا فلاسفة تبرير العنف عن كيف يتعايش الفقر مع السلام.

وفي أواخر العام الدراسي، وعندما ترتفع هامات شخوص (خيال المآتة) على طول الضفاف، أعرف أن بواكير ثمار البطيخ والشمام قد بدأت في النضوج، وبخبرة الصداقة مع هذا الجسر الطويل، أعرف أين أجد ما أبحث عنه، إنه البطيخ الأصفر (تذكروا كان ذلك من نصف قرن)، حيث لا هندسة وراثية ولا غيره، والأعجب منه البطيخ البرتقالي. نعم أكلت البطيخ الأصفر والبطيخ البرتقالي، من حقل فلاح أمي بسيط في

ستينات القرن الماضي، ولم أعرف وقتها أنني آكل فاكهة سوف تنقرض إلى الأبد، فلم تمر بضع سنين حتى جاءت الهزيمة، ولم يعد النهر يفيض، ومات الزعيم، ونمت على الضفاف حقول الشيطان، التي ما لبثت أن أثمرت قتلا وعنفا ودماء ودموعا وحزنا..

قد يظن قارئ أن هذه السطور هي زفرات حنين من منفي أو مهجر، لكن الحقيقة أن رُبى الأحلام التي سكنت كياني في ذلك الزمان هي التي غادرت إلى الماضي السحيق، والنهر العفي الهادر الذي عشقته في تلك الأيام، لم أعد أعرفه، فقد بات يزحف كدودة مذعورة، يبولون في مجراه، وتملؤه الجيف، وأسنت مياهه، وهجرته الأشرعة إلى الأبد.

وبعد نصف قرن، عرفت أنني كنت أرى الثنائية المعجزة: "الفقر، والسلام".. أقصد الثلاثية المعجزة: "الفقر، والسلام، والبطيخ الأصفر".

الدين والدبابة.. مزيج القمع والعبودية

لأن هذا نظام عمر البشير تمكن وتغلغل وتغوَّل في نفوس البسطاء بالقهر والإرهاب باسم الدين، فرأيي أن إسقاطه سيكون صعبا ليس لأنه ذو رصيد أو دعم شعبي، لأن العكس هو الصحيح تماما، لكن آلية الفقر والجهل الجهنمية الجبارة التي سيق إليها السودانيون سوقا لعقود طويلة .. تلك الآلية هي التي مكنت هذه النظم الفاشية من تضليل الشعوب تارة من جماعات تتوارثهم باسم التاريخ وأخرى تتوارثهم باسم الجغرافيا وتارة من جماعات تتوارثهم باسم الدين وهي أشدهم خطورة، فتلك الجماعات الأفاقة استغلوا فطرة هؤلاء البسطاء القانعين روحيا بالمقاصد السامية لعقيدتهم الشاكرين على تلك الوديان المعشبة التي وهبهم الله إياها بعد طول ترحال في البوادي القاحلة في جنوب شبه الجزيرة، وعندما اختلط هؤلاء بسكان البلاد الأصليين اختلطوا مندمجين دون عنف أو كراهية أو تعصب.

وكل مقومات ثورة على نظام هي متوافرة الآن في هذا البلد المنكوب، فالوطن تشظى والناس جاعوا والحريات قمعت كل ذلك فعله نظام الإخوان الترابي وذراعه العسكري البشير وأعوانهم وممولوهم، وصعوبة إزاحة هذا النظام تكمن في أسباب عده منها تحول الجيش من مؤسسة وطنية إلى طبقة حاكمة، وتحول تابعي النظام ومؤيديه إلى طبقة أخرى، وهاتان الطبقتان البرجوازيتان لا تعانيان مما يعانيه الناس، وعليه سوف يعتبرون

الدفاع عن استمرارية هذا النظام مسألة حياة أو موت، ونظرة إلى الجيران في الشمال سوف يؤكد ما نقول؛ فالإخوان في مصر الذين تحولوا إلى طبقة مصطفاة من العناية الإلهية أصابهم الذعر والهلع عندما فقدوا كرسي الحكم، وهم الآن يرقصون رقصة الطير المذبوح وينشرون الدماء في كل اتجاه، وإذا كان المصريون دفعوا ثمنا باهظا لحكم عام واحد من هؤلاء؛ فكم سيدفع السودانيون ثمنا لحكم هؤلاء لثلث قرن؟

سبب آخر لصعوبة إزاحة هذا النظام، وهو أن السودانيين يظنون أن خلاصهم سيكون على أيدي زعامات تاريخية مازالت تقاوم الزمن على الساحة، وهذه الزعامات دائما ما يجد النظام السبب والوسيلة لسحقها.. وتحضرنا هنا مأساة الهادي وأتباعه في الجزيرة (أبا) الذين أبادهم نميري بمساعدة عبد الناصر ببراميل النابالم باعتبارهم فلولا دينية رجعية ستعوق تحول السودان إلى دولة عصرية حديثة، والمفارقة أن نميري نفسه بعد سنوات وقف على ضفاف النيل في احتفالية كبيرة ليلقي بصناديق الويسكي والبيرة في مياه النهر معلنا السودان دولة دينية بامتياز، ومن هنا كانت الشرارة الأولى التي فجرت السودان، وفي رأيي أن السودانيين دفعوا باسم الدين من دمائهم ما لم يدفعه شعب في كل المنطقة، وباسم الدين أيضا دفع السودانيون من أراضيهم ما لم يدفعه شعب في كل المنطقة، وبفضل هؤلاء الذين ذبحوا الخراف في شوارع الخرطوم ابتهاجا بفقد نصف وطن بفضلهم سوف يتكرر المشهد في دارفور وجبال النوبة وغيرها إذا ظل هذا النظام ناشبا أنيابه في جسد هذه الأمة التي لا تستحق هذا المصير البائس..

نعم هذا الشعب لا يستحق هذه السنين من الرق والعبودية؛ فالسودانيون هم شعب واع ومثقف، ويملك كل مقومات الغنى والرفاهية، شعب ينشد الحرية ويقدسها ثار على المستعمرين الأجانب وتخلص منهم، لكنه وقع في شرك مستعمرين محليين ساموه عذابات لم يذقها على يد الأجانب.

ورغم المحصلة البائسة لحكم ثلث قرن من ضياع نصف الوطن ونصف موارده وتدني معيشة الناس ورئيس مطلوب للمحاكمة الدولية وأجزاء كبيرة مرشحة للانفصال وعملة في الحضيض ناهيك عن الفساد والفوضى والميليشيات الدموية وبشر جوعى مرضى محرومين من أبسط الحقوق رغم كل ذلك مازال النظام يكابر وسوف يكابر معتمدا على تمويلات مشبوهة ستهب لمساندته لأسباب عنصرية وطائفية كريهة.

ورغم ما يقرب من اثني عشر انقلابا أو محاولة للاستيلاء على السلطة نجح بعضها وفشل الباقي، والذين نجحوا لم يستمروا في السلطة لسنوات معدودة عدا نميري والبشير، وهما اللذان استعملا الخلطة السحرية؛ أي مزج الدين بالدبابة؛ فالأول حكم خمس عشرة سنة، والثاني حكم سبعة وعشرين عاما حكم (دينو – عسكري) لو صح التعبير فإن لم تفلح الفتاوى والسياط باسم الشريعة في قمع الشعوب؛ فالبديل هو الحكم العسكري والطوارئ والاعتقالات والمحاكمات العسكرية السريعة وأحكام الجلد بالسياط على كل من يتجرأ على انتقاد هذه الطُغمة الفاسدة.

الخلاصة: يجب أن يتوقف السودانيون عن انتظار الهادي أو المهدي أو الميرغني، فالأول قتله المصريون بطائراتهم في أبا، والثاني والثالث تجاوزتهما المرحلة مع أحزابهم العتيقة، والأمل في الشباب الذين بدأوا إرهاصات ثورة ملامحها تتبلور مع أول دفعة من الشهداء في أول مواجهة حقيقية مع النظام، وسوف تتوالى المواجهات ويتوالى معها سقوط الشهداء، وسوف يسقط هذا النظام عاجلا أو آجلا.. سوف يقتلعه الشباب قبل أن يضيع بقية السودان قبل أن يتحول إلى كانتونات من المخيمات المرهوبة بعصابات الجنجويد، قبل أن يتحول إلى صومال جديد.

....

- كتب هذا المقال قبل سنوات من سقوط حكم عمر البشير

الغزو التناسلى

في هذه البيئة الفاسدة الكثير من المنظرين يزعمون أن التناسل الكثيف سيكون هو وسيلة النصر الاستاتيكي المؤزر على الأعداء، وهي عملية إحلال هادئ لأعراق كثيفة التناسل مكان أعراق قليلة الخصوبة تتناقص أعدادها يوما بعد يوم، ولكثافة البث على مدار الساعة لهذا الطرح المدرع بنصوص دينية أصبح مجرد التعرض له أو لأحد منظريه، مغامرة عواقبها غير مأمونة، مع اتهامات بالكفر لأن توجيهات سماوية صدرت بضرورة التوالد الكثيف لتحقيق هذا الهدف المقدس، وأيضا لأنه يثير جلبة غير مطلوبة نحو هذه الخطة الجهنمية الجبارة التي ستغير خارطة العالم عما قريب دون الحاجة لأسلحة أو حروب فسوف يتم التغيير المأمول في صمت وهدوء.

وعلى مر قرون مضت جرت كثير من المحاولات المضنية لاقتحام هذا التابوه وتصحيح هذه المفاهيم لكنها جميعا فشلت بامتياز، بل وجلبت نتائج في عكس الاتجاه مائة وثمانين درجة، وارتفعت وتيرة التناسل المقدس وبالطبع ارتفعت معها وتيرة الفقر والجهل والمرض والتخلف، ومع ذلك لا يزال الجميع في انتظار اكتمال الأعداد لبدء مسيرة الزحف المقدس إلى الهدف المنشود أو بالأحرى الأهداف المنشودة المعلن منها والمستتر، المحلي منها والكوني.

ولعل الموضوعية تجبرنا على القول بأن نجاحات مرحلية لهذا الفكر قد تحققت؛ ففي مصر على سبيل المثال كان عدد السكان حوالي ثلاثة ملايين إنسانا منذ قرنين من الزمان، وكان نصفهم تقريبا أقباطا مسيحيين والنصف

الباقي مسلمين.. اليوم تعداد المصريين مائة مليون، المليون ونصف المسيحيون أصبحوا حوالى خمسة عشر مليونا، والمليون ونصف المسلمون أصبحوا حوالي خمسة وثمانين مليونا، وعلى القارئ وبقليل من الاجتهاد إيجاد التفسير.

ومازلنا في مصر حيث تقف المؤسسة الدينية الرسمية حائط صد منيع في مواجهة أي تشريع أو حتى توجيه ينظم عملية التناسل أو التزاوج لإيقاف نزيف موارد الدولة التي أصبحت مطالبة بتوفير سكن ووظيفة وتعليم وغذاء لمليونين من الوافدين الجدد سنويا، وهنا يتضح بجلاء هدف خبيث مستتر وهو إرهاق الدولة، وبالتالي عدم ملاحقة هذه الزيادات وسد احتياجاتها، فنشأت بقع عشوائية في طول البلاد وعرضها، وهي البيئة المفضلة الحاضنة الحامية لهذه الكيانات التي تضلل الناس وتغسل أدمغتهم، وتتبعها شبكة أنشطة خبيثة بغطاء اجتماعي يسد بعضا من أعواز هذا الفائض البشري العاطل المعدم ويحتضنهم ويسلبهم فكرهم وعقولهم ويصنع منهم ظهيرا صلبا هو أقرب إلى ميليشيات يستخدمونها في الانتخابات والتظاهرات وحتى الأنشطة المسلحة عند الحاجة وتصديرها كوقود للصراعات الدينية والمذهبية والطائفية في كل المنطقة وخارجها، والباقي يتم شحنه إلى ضفة المتوسط الشمالية استعدادا لليوم المشهود يوم النصر الديموجرافي العظيم، يوم إحلال الأعراق السامية الموصى عليها من السماء مكان أعراق ستنقرض بالضرورة لأنها تحفظ النمو السكاني عند الرقم صفر أو أقل قليلا حفاظا على مستوى معيشة يليق بالبشر..

ولعلي لا أذيع سرا عندما يعلم القارئ أن بعض قرانا في شمال دلتا

مصر تصدر الأطفال إلى إيطاليا مشحونين في قوارب المطاط مقابل مبالغ يقبضها ولي الأمر مقدما من جهات وجمعيات مجهولة أو بالأحرى مجهلة (والغريب أن إعلاما ساذجا يصدق ويصدر لنا أكذوبة أن مواطنا يدفع مائة ألف جنيها ليجد مكانا في قارب مطاطي ربما يغرق قبل أن يغادر المياه الإقليمية) بالإضافة إلى أن مبلغ مائة ألف يصنع فرصة عمل محترمة في الوطن، أي وطن.

والأمر ينطبق على كثيرين من إفريقيا شبابا ونساءً وأطفالا يقبضون مقدما للدفع بهم في مغامرة محسوبة ومدفوعة مقدما، وتنشأ وتمول لهم مراكز إعادة تصدير على شواطئ ليبيا وتونس والمغرب، وقد أفاق الأوروبيون بعد أن وصل تعداد المهاجرين على سبيل المثال لقرابة ١٠% من عدد السكان في دولة مثل بلجيكا غزاها الأتراك والمغاربة والأفارقة، وأصبحت مركزا رئيسا لكل عمليات الإرهاب في أوروبا، وإن كانوا قد أفاقوا متأخرين لكنهم انتبهوا وأوقفوها وبدأ صعود اليمين السياسي الداعي إلى حصارهم وطردهم، ولو حدث ورُدَّت بضاعتنا إلينا ستكون مأساة تضاف إلى مأساة الفائض الذي توقف تصديره بالإضافة إلى الفائض المتفجر المعاد تصديره إلينا من سوريا والعراق، وقريبا من ليبيا، ولا يزال دعاة الغزو التناسلي صامدين فهذه الفيالق من الجهلة المغيبين الجوعى العرايا هم سلاحهم في مواجهة أية دعاوى للولوج إلى العصر والاندماج في المنظومة الإنسانية وإعمار الكون بدلا من العيش على حافة الكوكب متفرجين.

الفريضة الغائبة... ثقافة الحياة

في صباي كان يستهويني الجلوس على محطة السكة الحديد، وبينما أقرأ إحدى روايات الجيب أستريح قليلا وأرقب القطارات والقادمين والمسافرين والمودعين، وأستمتع أكثر بمشهد المبنى الفيكتوري الأنيق العتيق، والمقاعد الخشبية التي تظللها أشجار الفيكس المشذبة النضرة الممتدة على طول الرصيف النظيف الموازي للمجرى الرائق لأطول وأوسع ممر مائي محفور في مصر بعد قناة السويس وهو (ترعة الإبراهيمية) تلك التي ترافق موازية مسار سكة القطارات من أسيوط إلى القاهرة، وكان يشدني مظهر العاملين في المحطة المعتزين بذواتهم والمتأنقين في ملبسهم المميز حينذاك، وكانت تلك إحدى المتع القليلة المتاحة لي في مدينتنا الهادئة الصغيرة.

في تلك الأيام علق بذهني مشهد استغرق تفسيره كثيرا، مشهد عمال السكة الحديد بزيهم المعروف آنذاك بينما يدفعون بأيديهم ما يشبه مقعدا يتحرك على المسار بأربع عجلات حديدية، يجلس على المقعد رجل يرتدي غطاء رأس واق من الشمس، وكان العمال بينما يدفعون المقعد يرددون بعضا من أهازيج، وعلى وقعها (أو هكذا خيل إلي حينئذ) يحرك الرجل رأسه يمينا ويسارا باستمرار، وأحيانا يتوقف الركب فجأة بإشارة من الرجل، الذي ينزل من على الكرسي، ويجلس القرفصاء، ليتفحص عن قرب شيئا، ثم يصدر تعليماته بإجراء عمل ما، ومن ثم يخرج العمال بعض الآلات من صندوق ملحق بخلفية الكرسي، ويبدأ العمل وينتهي، وتوضع

العدد في أماكنها، ويستأنف الجميع المسير بنفس الوتيرة يرددون أهازيج وعلى وقعها (أو هكذا خيل إلى حينئذ) يحرك الرجل رأسه يمينا ويسارا الى أن يغيب الجميع عن ناظري شمالا أو جنوبا.

بعد نصف قرن، وبعد أن غاب هذا المشهد إلى الأبد، وبعد أن اعتدنا مشهد القطارات المقلوبة والمحترقة، وبعد أن نأسف لطول المقدمة، أخبركم الآن من كان هذا الرجل؟ وماذا كان يفعل؟ إنه مراقب سلامة السكة وصيانتها، الذي كانت مهمته ملاحظة أي خلل قد يطرأ على توازي وثبات فرعي المسار الحديدي في القطاع الطولي المخصص له، أما حركة رأسه يمينا ويسارا فكانت لالتقاط أي ظواهر غير مألوفة في مسامير تثبيت القضبان المتتالية تبادليا على الجانبين، وعرفت أيضا لماذا كانت القطارات (البدائية وقتها) تصل في المواعيد المقررة، وكانت صافراتها المميزة هي الوسيلة المتاحة لمعرفة الوقت بدقة في طول البلاد في ثالث أقدم خط حديدي في الدنيا أنشأه (المستعمرون الغزاة) كان ذلك هو أحد ملامح ثقافة الجودة أو ثقافة الحياة، تلك التي كانت سائدة في مرافق الدولة المصرية (العصرية) حتى منتصف القرن الماضي، الثقافة التي كان ينتج بها (ياسين) الزجاج، وينتج بها (الشوربجي) الأقمشة القطنية، وينتج بها (عبود) السكر والسماد في طول البلاد، ولم تكن الحرائق تنشب يوميا في متاجر ومخازن داود عدس وشيكوريل وبنزايون، إنها ثقافة الجودة، الثقافة التي أفرزت طلعت حرب في الاقتصاد، وطه حسين ونجيب محفوظ في الأدب، وسعد زغلول ومكرم عبيد وجمال عبد الناصر زعماء، وناجي وشوقي وحافظ شعراء، وموسى وهيكل صحافيين، ومختار وأم كلثوم وعبد الوهاب

في الفن، وغيرهم وغيرهم..

كل ذلك كان قبل مائة عام، قبل أن يكون للجودة مسميات لاتينية، وأرقام ورموز ومصطلحات طويلة ومؤهلات وتراخيص لا تمنح إلا بشق الأنفس، وعلامات لا يمكن وضعها على منتج إلا بعد إجراءات معقدة ودولارات هذا عددها، إلا أن المؤكد أن الرجل الجالس على هذا الكرسي (المتحرك)، كان ينفذ برنامجا أكثر دقة، برنامجا مطبوعا في جيناته، وهو برنامج الضمير الحي الذي ورثة عن أجداده الذين صنعوا معجزات هندسية في الماضي البعيد والقريب، لا يزال العالم كله يحتار في تفسيرها إلى اليوم..

لكن ماذا حدث في كل مرافق الدولة المصرية، لماذا أصبح الإهمال والتواكل والغش والتدليس والرشوة والنصب والاحتيال بالإضافة بالطبع لمنتجنا الرئيس وهو (الفهلوة)، لماذا أصبحت تلك القائمة الطويلة هي البديل لبرامج (المراجعة والتحكم والتوكيد) وهي البرامج المعتمدة في كل المجتمعات المتحضرة لتحسين جودة الحياة الإنسانية، ولماذا أصبحت هذه القائمة الطويلة من الموبقات هي برامج الجودة المحلية التي ابتكرناها، ونحصد نتائجها الباهرة كل ساعة فتنقلب القطارات وتنتشر الحرائق وتتصادم السيارات وجها لوجه وتغرق السفن وتسقط الطائرات وتنهار البنايات، وأصبح غذاؤنا مسمما وتعليمنا مهلهلا وقضاؤنا ظالما ومنتجنا كله عوار، كما وأصبح هواؤنا ملوثا ومياهنا آسنة، وتم مسخ البشر وتحويلهم لأشباه آدميين مسلوبي الفكر والإرادة.

إن ما يتعرض له الإنسان من قهر في هذه البقعة المظلمة من الدنيا،

في هذه الحقبة المظلمة من التاريخ، قهر السلطة السياسية، وقهر السلطة الروحية، وقهر القوانين المتكلسة، وقهر الأعراف البالية، كل هذا القهر أفقده الأمل في الحياة التي يعيشها، إنسان لم تعد له حياة يسعى للحفاظ عليها فهو يمشي مرتديا لحده وأمامه القبر الفارغ الذي يفغر فاه في وجهه ويهم بابتلاعه، هكذا لقنوه في الميديا ودور العبادة والمدرسة، فلماذا يصون السكة إذا كانت كل السكك تؤدي إلى باب القبر، ولماذا يدقق في زراعته أو صنعته أو مهنته، فالأمر لا يستحق كل هذا العناء، فنحن جميعا في انتظاره، في انتظار الموت، نعم هذه هي الثقافة الحاضرة المقررة على هذا الإنسان في هذه المنطقة من العالم، ثقافة انتظار الموت ومتلازمتها الأزلية التوأم ثقافة الرزق الساعي إلى الأبواب، ثقافة لا يستقيم معها أي نشاط إنساني يكون هدفه المساهمة في إعمار هذا الكون وتقديس نفحة الحياة التي وهبنا الخالق، فبينما تنهمر الأبحاث والمخترعات على رؤوسنا كل ساعة، من أناس يبحثون في (كيف يعيش) الإنسان، أي تيسير وتجويد سبل العيش و(البقاء) له أي ثقافة الحياة، لا يزال آخرون غارقين في مبحث واحد هو (لماذا يعيش) الإنسان، مبتدعين ومنظرين وميسرين سبل الموت و(الفناء) له أي ثقافة العدم.

وفي آخر الحروب (وأنا شاهد عيان) طبق المصريون برنامج جودة من ابتكارهم، ملخصه: هدف واضح وفرد محترم ومعدة مصانة، هدف تمت دراسته وتحديده بكل دقة، دونما تهور أو تردد، وفرد محترم وفرت له القيادة أجواء المساواة بالأقدمية المطلقة دون النظر لدينه أو عرقه، ومعدة مصانة طبقا لأصول تصنيعها، ويغلف كل ذلك عقيدة تحض على العمل، بأقصى

ما وهب الله للإنسان من يقظة الضمير وقوة العقل ورجاحة الفكر، لذا كان النصر وليدا لثقافة الجودة أو ثقافة الحياة، الجودة التي نفتقد حدها الأدنى في كل مناحي الحياة، وهي الفريضة الواجبة التي يحاربها أعداء الحياة، خشية أن تستشري، ومن ثم يستخدم الناس عقولهم في التساؤلات الخطرة، التساؤلات التي ربما تطيح إجاباتها برؤوس أصنام كثيرة، هذا هو الصراع المحتدم بين الفريضة الغائبة ثقافة الحياة، المتمثلة في السعي الدؤوب لتحسين أحوال إنسان (حي) وبين الفريضة الحاضرة ثقافة الفناء المتمثلة في تمجيد أحوال إنسان (ميت).

وفي زيارتي الأخيرة لمسقط رأسي، انتابتني موجة حنين جارف لجلسة صباي الأثيرة على محطة القطار القديمة، ولم أدهش كثيرا عندما رأيت شجرة (سنط) كثيفة متغولة، تنفث الأشواك على الرصيف المتهالك، وبعض نخلات عجفاء عقيمة برزت في الفوضى المخيمة على المكان، وأسراب الغربان متراصة ساكنة على أعمدة الإشارات العاطلة، وكأنها في انتظار زلزال، والكلاب الضالة تضطجع آمنة أسفل الجدران الرطبة للمبنى الفيكتوري المتهدم، وزواحف وهوام من فصائل كثيرة عششت في المكان، ونبات الحلفا يبرز من بين فواصل بلاط الأرصفة، وحروف باهتة على لوحة عرجاء تستند على بقايا سور، والمقاعد الخشبية المتآكلة تبدو كهياكل عظمية لجيف متحللة، والمجرى الرائق أصبح مستنقعا مغطى بطبقة آسنة سميكة، تبرز منها أطراف دواب نافقة وعلى جانبيه أكوام أزبال كثيفة لمدينة بكاملها رائحتها تزكم الأنوف. عدت أجر أذيال الخيبة يعتصر الألم قلبي الحزين.

هو القتل

هو سيد وسائل الإسكات على الإطلاق، إسكات صوت الخصوم كل الخصوم: المعارضين والمعاندين والمنافسين والمخالفين، والخصوم (الآخرين) إسكات صوتهم إلى الأبد، وهو القتل.. سيد وسائل الإخفاء أيضا، إخفاء صور الشخوص وكينونتهم وهيئاتهم وأسمائهم ونسلهم من على وجه الأرض ثم دفنهم في الأعماق، وفي ثقافات مغايرة حرقهم ونثر رمادهم حتى نضمن تلاشي أي أثر لهم، وبعد أن نطمئن إلى إسكاتهم وإخفائهم نتنفس الصعداء فلم يعد صوت لهم ولا صورة بعد اليوم، ونتفرغ نحن للاستمتاع بما قتلناهم من أجله، وهو لا يخرج عن جاه أو مال أو امرأة، وأحيانا لا شيء من ذلك كله فقط لننعم بعدم وجودهم لأنهم الآخرون المختلفون، المختلفون في أي شيء: دين أو مذهب أو عرق أو لون أو ثقافة أو طريقة الملبس أو نوع الطعام أو حتى تشجيع فريق منافس

وهو القتل الذي لم تقف أبدا عوامل مشتركة كوحدة اللون أو العرق أو الدين ولا حتى الأبوة والبنوة، لم تقف أبدا كل عوامل الوحدة هذه حائلا ضد رغبة الإنسان في ممارسته، ممارسة هذه الرغبة الحيوانية المتوحشة التي علقت به ولم يستطع التخلص من جيناتها الموروثة من جده الأول قايين منذ عصور الغاب السحيقة. وعادة ما يتم استدعاء الاختلاف في واحد من هذه العوامل أو أكثر لتعزيز وتحفيز الرغبة نفسها بالإضافة

لعوامل اختلاف كثيرة برزت بمرور الزمن ويمكن استخدامها بكفاءة لتحقيق الهدف (الدامي)، فرغبة القتل تحتاج دائما لمحفز لدفعها للمرحلة النهائية وهي إزهاق روح إنسان، بالإضافة بالطبع لعامل كامن منذ القدم على الساحة وهو ادعاء الوكالة الإلهية في نزع الحياة من بشر لأسباب (مقدسة).

وينطبق على الشعوب والأمم ما ينطبق على الأفراد؛ فلفظ القتال في الحروب هو السائد وهو اللفظ الرئيس المشتق من الفعل الأصلى (قتل)، أما احتلال الأرض واقتناص الغنائم وغيره من النتائج فهي نتائج ثانوية لا تشفي الغليل، وعندما تذاع البيانات العسكرية تذكر أولا وبفخر الخسائر في الأرواح، أي أعداد من تم قتلهم لأنها المؤشر الأوضح الدال على اتجاه سير المعارك، وعلى مر العصور تم تطوير الأسلحة المستخدمة من الخناجر والسيوف والحراب إلى المدافع والطائرات والقنابل النووية، والهدف الواضح من التطوير مهما قيل من تبريرات هو القتل أسرع والقتل أكثر.

وعملية القتل تحتاج الى فترة تحضيرية يتم فيها التجهيز(سواء للفرد أو الدولة) التجهيز لساعة الصفر أي ساعة اتخاذ قرار تجريد كائن من لقب إنسان، وتحويله إلى جثمان أو جثة جاهزة للدفن أو الحرق أو لا يعثر لها على أثر؛ فقد تذهب وجبة شهية لأسماك في قيعان البحار أو جوارح في رمال البوادي.

وتختلف الفترة التحضيرية لتنفيذ عملية القتل من فرد إلى فرد ومن شعب إلى شعب طبقا لعوامل كثيرة منها البيئة الاجتماعية والاقتصادية

والثقافية والعقيدة السائدة وحتى حالة الطقس، بالإضافة بالطبع لمدى قوة تأثير المرشدين السياسيين والروحيين وهم من يوكل إليهم مهمة بث القدر الكافي من الكراهية اللازمة، بالإضافة إلى استخراج المبررات السياسية والدينية المناسبة بالإضافة لاستغلال تأثيرهم الكاريزمي على الأفراد والشعوب، والفترة التحضيرية بالنسبة للأشخاص والشعوب هي الفترة التي تتفاعل فيها كل المؤثرات مع بعضها البعض، الباعث الرئيس والشحن المعنوى (كمية الكراهية التي يتم ضخها في النفوس) بالإضافة للسلاح المناسب والوقت المناسب، وفي تطبيق القصاص يبحث القضاء (العادل) في مدى (الإصرار والترصد) أي كم الكراهية المتراكمة التي تجعل القتلة يترصدون خصومهم مصممين على تجريدهم من الحياة أي تجريدهم من الهبة التي منحهم إياها الخالق، ولم يفوض أحدا غيره في نزعها إلا بالقصاص المشروط المنظم العادل ولم يكن أبدا ضمن شروط هذا القصاص العادل نزع الحياة من إنسان لأنه مختلف.

نعم هو القتل البضاعة التي نفخر أنها صناعتنا بامتياز، وهو القتل الجريمة التي اجتاحتنا وندعي كذبا أننا فوجئنا ونمثل مشهد الدهشة رافعين حواجبنا فاغرين أفواهنا، أما الحقيقة فهي إنتاج مزارعنا، إنتاج بيوتنا وشوارعنا ومدارسنا وثقافتنا وإعلامنا وقضائنا.. نعم بيوتنا المفككة وشوارعنا مرتع الفوضى ومدارسنا قلاع الجهل والأمية وإعلامنا المضلل وقضاءنا الفاسد الذي فتح أبواب الهروب من القصاص وأعلى المبدأ الفاسد أنه يمكن وجود قتيل بلا قاتل.

الممولون

مرات كثيرة هممت بالخوض في هذا المستنقع الآسن، لكن ما كان يعوقني هو أنني لا أميل لنظرية المؤامرة، وهي شماعة يسهل تعليق أي تفسيرات عليها دون الحاجة لسوق مبررات موضوعية تقنع القارئ، شيء آخر هو أن الموضوع شائك ولا توجد معلومة موثقة يمكن الاستناد إليها وما على الباحث إلا الاعتماد على استنتاجات وفرضيات تفرزها الوقائع على الأرض، شيء أخير هو أن الموضوع أصبح موضوع استخباراتي بامتياز، فما أن تعتقد أن معلومة استجدت في هذا الصدد يمكن التعويل أو البناء عليها لكن سرعان ما يظهر نقيضها وخصوصا في هذا الفضاء المعلوماتي الرهيب. لكن في الفترة الأخيرة ومع تطور الوضع في بلادي بدأ التنافر بيني وبين نظرية المؤامرة يتضاءل شيئا فشيئا حتى أصبحت على يقين بأن هناك ما يدبر بليل لهذا الوطن وهذه المنطقة من المحيط إلى الخليج.

ولأن أي خطة يراد لها النجاح يجب أن تشمل عناصرها الرئيسة الهدف الواضح والفرد المنفذ وآليات التنفيذ وعلى رأسها بالطبع المال الذي بدونه تصبح الخطة مجرد حبر على ورق، أما الهدف الذي نحن بصدد البحث في تمويله هو إحياء أو بعث ما يسمى بالمشروع الإسلامي، وهي التسمية الغالبة لأنها تستطيع أن تحتوي كل التسميات الفرعية الأخرى مثل دولة الخلافة أو دولة الإسلام أو إمارة المؤمنين وغيرها من التسميات،

ولأنها أيضا يمكن أن تحتوي كل من يعتقد بأنه يعمل في نفس الاتجاه: أفرادا ومجموعات، وهي أيضا التسمية التي تدغدغ مشاعر مليار من البشر مطلوب تعاطفهم مع (المشروع) وهذا التعاطف هو العامل الحاسم في تجديد منابع التمويل اللازم لاستمرار الجهود والسير بتصميم نحو الهدف المزعوم، أما المنفذون وهم حملة السلاح فهم إما أفراد يؤمنون بالهدف مقتنعون بوسيلة التنفيذ أو آخرون أصبحوا يمتهنون هذه الحرفة لأن الواقع يقر بأن هناك مقابل مجز يدفع لهؤلاء الذين أصبحوا يحتكرون (المهنة) وهم يتركزون في بعض مناطق القوقاز والشيشان وأفغانستان وبعض السعوديين والليبيين والمصريين، وهؤلاء كلهم أو جُلهم محدودو العلم والثقافة حتى يمكن الاعتماد عليهم في التنفيذ الأعمى للأوامر دون مناقشة أو جدال، وهو مبدأ السمع والطاعة المتعارف عليه في هذه الأوساط، بالإضافة بالطبع للكوادر المهمة التي تتولى بعث الفكرة وتثبيتها في العقول وهم طائفة الدعاة والمرشدين.

تتبقى أدوات التنفيذ واللوجستيات اللازمة وهي ما يرتبط ارتباطا وثيقا بحجم التمويل الذي يغطي دفع تكاليف الإمداد والتموين والنقل والتخطيط والأجور والاتصالات والإعاشة وغيرها، وهذا هو موضوعنا في هذا الطرح، وبادئ ذي بدء ننوه في النقاط التالية عن بعض الأمور التي ربما توسع كادر الصورة التي نحن بصدد عرضها على القراء، وهي اجتهادات لا أدعي أنها الحقيقة، ولكن أدعي أنها قراءات ممحصة لأحداث على الأرض ربما أمكن ربطها وتحليلها للخروج باستنتاجات قد يشاركني فيها قسم من القراء:

أولا – لا يوجد أدنى شك في أن تمويلا هادرا منتظما يتم ضخه في طول الكوكب وعرضه، وأن هذا التمويل يفوق أي قدرات أو تبرعات فردية.

ثانيا – أن ما يحدث في قارات الكوكب من وسط إفريقيا إلى وسط آسيا إلى وسط أوروبا لا يمكن إلا أن يكون عملا احترافيا منظما تنظيما لوجستيا عالي الكفاءة.

ثالثا – الأهداف التي تبدو للعيان غير واضحة هي في الحقيقة تفرعات تصب في المجرى الرئيس فما يحدث في مالي ووسط إفريقيا وساحل العاج ونيجيريا، هو ما يحدث في مصر وسوريا واليمن والعراق وليبيا، وهو ما يحدث في الشيشان والفلبين والبوسنة والصين وغيرها وغيرها من البقع الدامية على كوكبنا بفضل الترويج لهذا المشروع الذي يعتمد ضمن ما يعتمد من آليات على إثارة النعرات الطائفية في البلاد التي يشكل فيها المسلمون أقليات.

نأتي لموضوع التمويل، ومن هم الممولون، وما هو العائد من هذا التمويل، وما هي حصيلة تريليونات من الأموال أنفقت (في سبيل الله) وما هي حصيلة ملايين أرواح أزهقت (في سبيل الله أيضا) في طول حقبة تمتد لقرن من الزمان وبالتحديد مع الضربة الموجعة للمشروع الثاني وهو مشروع آل عثمان، وكان المشروع الأول قد انتهى بالخروج المهين لملوك الطوائف من الأندلس، وما نحن بصدده اليوم هو محاولة إحياء موجة ثالثة لهذا المشروع، لكن هذه المرة ليس بالفتوحات أو الغزوات حيث لم يصبح

لهذا النمط مكان في القرن الواحد والعشرين بالإضافة لحالة التخلف والفقر والجهل التي أصبحت هذه الشعوب ترزح تحت نيرها بفضل هؤلاء الذين زين لهم خيالهم أنه يمكن مواجهة عالم متحضر يملك العلم والسلاح والثقافة والتكنولوجيا بأساليب مستحدثة مثل بث الفتن وإثارة القلاقل وزعزعة الاستقرار وتأليب الأقليات على أوطانها وإشاعة الفوضى والارهاب والقتل على الهوية ودعاوى التقسيم والانفصال والتمايز الدينى والعرقى، وإن لم تفلح أي من هذه الوسائل فلا بأس من هدم المعبد على رؤوس الجميع.

أما عن الاموال التي تضخ لحساب هذا المشروع، وقد قلنا سلفا أنها هادرة ونحن نعني التعبير لأن المساحة الجغرافية التي يغطيها هذا التمويل هائلة تشمل قارات الكوكب الأربع دون مبالغة أو تهويل، لذا يمكن القول أنها أموال متجددة معينها لا ينضب وهو معين آمن تماما وخزائنه محصنة وحساباته فائقة السرية مما يستبعد معه احتمالية أن تكون تلك مجرد منظومة فردية فالأمر أكبر من ذلك بكثير بحيث نستطيع القول أن كونسرتيوم مكون من دول وبنوك وأجهزة استخبارات وشركات غسيل أموال هو الآلية الأقرب لإدارة هذه الشبكة العنكبوتية. ولا شك في أن النفط هو البقرة الحلوب التي تدر هذه الأموال أو القسم الرئيس منها باعتبار أنه لا توجد آليات مراقبة شعبية أو برلمانية لمدخول هذه الدول وأن بند الانفاق (في سبيل الله) هو بند مقدس لا يستطيع أحد طلب مراجعته أو الاعتراض عليه..

وحتى لا نقع في خطأ التعميم لا يمكن القول أن كل دول النفط

تشارك في هذا التمويل برعاية أنظمة الحكم لكن هناك جمعيات وأمراء بأشخاصهم (وغالبا هم خارج مظلة العائلات المالكة) وشركات وهمية وعائد استثمارات في كل أوروبا يسيطر عليه التنظيم الدولي للإخوان المسلمين وبنوك في قطر وتركيا وأخرى في جزر البهاما وبنوك بعيدة عن الأنظار في إندونيسيا وماليزيا.. أما عن باقي المساهمين فالشواهد تقول أن المخابرات الامريكية والبريطانية والتركية والباكستانية وغيرها من المهتمين بـ (المشروع) هي مراكز التشهيلات وعقد صفقات الأسلحة وتوريد الكوادر وتوفير المأوى والدعم اللوجيستي لها، وهي الصفقة التي تتضح خيوطها يوما بعد يوم.

هذا هو المشروع، وهذا هو ما ينص عليه.. تنقصنا النتائج، وهي الشيء الذي لا يستطيع أحد إنكاره: دماء ومخيمات وفقر وحروب وجهل وتخلف، ولو أنفقت هذه الأموال على تعليم وصحة وبنية تحتية لهذه الشعوب لأصبحت قوة قادرة تملك قرارها وقوتها، لكن الممولين مصرون على المضي قدما في استنزاف موارد هذه الشعوب في مغامرات الوهم المستدام حتى تظل على حالها خانعة جائعة مقهورة. وما حديث رئيس وزراء بريطانيا العظمى تحت قبة مجلس عمومها عن الاقتصاد الإسلامي وما يسمى بالصكوك الإسلامية إلا تملقا وزلفى لهذه الترليونات التي يتنافس الجميع لاقتناصها لإنعاش اقتصادهم بغض النظر عن ماهية هذه الأصول وملاكها وقانونية خروجها من بلادها، مع ملاحظة أن لندن بالذات هي الملاذ الآمن لكل مشتغل بهذا المشروع مرة تحت مظلة مراكز أبحاث وأخرى تحت مظلة حقوق الإنسان، وكلها أكاذيب، والحقيقة أنهم

مستضافون تحت مظلة هذه الترليونات حتى لا تهرب بعيدا، ونحن نتحدث عن أرقام تقدر بآلاف المليارات. ومن هنا يتضح السبب الحقيقي لما يسمى بالربيع العربي، وهو تمكين هذه الأنظمة التي تمتلك هذه الأموال من السلطة وسرقة الحكم في مصر وتونس وليبيا واليمن وسوريا، ولا عزاء للشعوب التي اشتاقت للحرية والكرامة فوقعت في براثن أفاقين عقدوا صفقة مشبوهة مع حلفائهم ففقدت الشعوب ما تبقى من حريتها وكرامتها التي ديست في المخيمات وطوابير الجوعى والنائمين الخائفين.. كل هذا بسبب مشروع الوهم الذي ابتليت به هذه المنطقة الموبوءة.

الناس الأثرياء

الناس الأثرياء دائما لديهم بدائل واختيارات وحلول حتى حين يعتقد الآخرون أنهم قليلو الحيل.

والناس الأثرياء لا تظهر عليهم علامات الاحتياج حتى وإن جارت عليهم الأيام.

والناس الأثرياء – دائما – مضيئون كعلامات فسفورية مشعة يسترشد بهم الناس في الظلام الدامس.

والناس الأثرياء دائما لديهم ما يكفيهم من الحرية، ولا يستطيع كائن من كان أن يحد من رحابة فضائهم.

والناس الأثرياء لا تعلق بهم سفاهات الناس، فهم ينفضونها كغبار الشوارع ويواصلون المسير

والناس الأثرياء يحبون جميع الناس، ولا تعلق الكراهية بقلوبهم، فهم يعرفون أنها شعور مدمر يسلب الإنسان رصيده من السلام مع النفس ومع الناس ومع الخالق.

والناس الأثرياء لا يبحثون عن ثراء المادة لكنها تسعى إليهم، وإن حدث لا يكون غناهم كغنى الشبع بعد الجوع، لكن المادة في أيديهم لها شأن آخر، فجيتس ونوبل وفورد وغيرهم كثر لم يعرف عنهم أنهم تصرفوا

في ملياراتهم كسفهاء.

وأثرياء العقول يولدون أثرياء ويموتون أثرياء مهما حاول الناس إفقارهم وبث سموم أحقادهم ومؤامرتهم التي يصنعونها فيهم.

والناس الأثرياء أقاموا دولة من العدم في ثمانية أعوام، ولم يقيموا احتفاليات عويل وصراخ على اللبن المسكوب، فنهض اليابانيون ونهض الألمان ونهضت أمم كثيرة لأنهم أثرياء، أثرياء الفكر والعقل والبصيرة والمعرفة والثقافة.

والناس الأثرياء لا يتركون أبواب أدمغتهم مفتوحة كصناديق المخلفات في الشوارع يلقي فيها كل عابر سبيل فضلاته، لكنهم يتحكمون فيما يسمعون وفيما يقرأون وفيما يشاهدون.

والناس الأثرياء لا يرون سوى الخطأ لأن الصواب هو نموذجهم المحتذى به، وأي خروج عليه معناه صفارات إنذار تزعجهم وتقلق مضاجعهم ولا يستريحون إلا بعد تصويب الخطأ.

والناس الأثرياء لا يعرفون العنف فالسلم منهجهم وسلاحهم المقاوم هو الكلمة والحرف والنغمة والريشة والإزميل والكاميرا، وهي ليست أسلحة قتال لكنها أسلحة معرفة إنسانية تحارب الشر في الإنسان.

والناس الأثرياء وجوههم سمحة وملامحهم مريحة وأصواتهم خفيضة مرهفو الإحساس قصبة مرضوضة لا يكسرون وفتيلة مدخنة لا يطفئون.

ولقد دخلت بيوت أعزاء قوم احتاجوا بعد عز باعوا كل شيء، لكن

ظلت أنوفهم مرفوعة ولم يضطرهم الاحتياج لتغيير مبادئهم وظلت هيبتهم سائدة رغم عوزهم.

والناس الأثرياء هم من يصنعون التاريخ ويصوغونه وتكتب أسماؤهم بحروف من نور تقرؤها الأجيال جيلا بعد جيل.

والناس الأثرياء دائما ما ينظرون للأمام، إلى المستقبل، فالماضي ولى ولا أمل في رجوعه فقد مات ولم نعد نملكه، أما المستقبل فهو الحياة، وفي مجتمعاتنا الموبوءة هم أقليات، وغالبا ما تضيع آراؤهم وسط ضجيج الرعاع فقراء المعرفة والثقافة والفن والعلم.

والناس الأثرياء ينتجون علما ومعرفة وأدبا وموسيقى وفنون منتجات تيسر حياة الناس وترقق مشاعرهم.

والناس الأثرياء يهابهم الناس فثراء المعرفة ينعكس مهابة على الوجوه.

والناس الأثرياء موجودون في كل عرق ولون ودين موجودون كملح الأرض ومنهم تخرج الزعامات التاريخية التي تغير مسار التاريخ.

بالطبع نحن نتكلم عن أثرياء العقول أثرياء الفكر أثرياء البصيرة أثرياء العلم أثرياء الثقافة أثرياء المعرفة، ولا نتكلم عمن يعتقدون أن الثراء هو ثراء المادة، فهؤلاء فقراء يولدون فقراء ويموتون فقراء حتى لو طفح الثراء من عتباتهم ولا يحتفظ لهم التاريخ بذكر، فهم لم ينتجوا شيءا يبقى للإنسانية لا فكر ولا إبداع ولا ثقافة ولا معرفة، وهم دائما سائرين يلوون أعناقهم إلى خلف إلى الماضي إلى الموت إلى العدم ويظلون هكذا يسقطون

في الحفر ويضيع منهم الطريق ويسيرون بلا هدى كطعان نوق تائهة في الصحارى، ومنتجهم الرئيس عنف وقتل ودماء، ناهيك عن أطنان من الهراء وملوثات الماء والهواء، وهم يعتقدون أن المادة تستطيع صنع حضارة وهو وهم كبير فالحضارة تنبت في أرض يرويها أصحابها بجهدهم وعرقهم ومعرفتهم وعلمهم وفكرهم وثقافتهم وموروث جيناتهم.

النوبة.. ضفاف الشجن

ربما يختلف هذا الطرح عن كثير مما سبق وكتب عن النوبة لأسباب كثيرة، منها أن معظم ما كتب عن النوبة هو من منظور أنثروبولوجي، ولسنا هنا بصدد الخوض في المسألة العرقية، أولا: لعدم التخصص، ثانيا: لأني مهتم أكثر بالمسألة الإنسانية، ومنها أيضا أنني أكن للنوبة – كل النوبة – احترام وتقدير خاصين، فقد أتيحت لي فرصة للعمل معهم والعيش في بيئتهم ورأيت كم الالتزام والإتقان والضمير الحي في عملهم والبساطة والتماسك والنظافة والأناقة في مجتمعاتهم، كما لا أنكر أنني متأثر بموروث ديني يعترف ويحتفظ بالعرفان لملوك النوبة المسيحيين الأول الذين ساهموا مرارا في تخفيف الضغوط عن الأقباط في شمال الوادي، حيث ظلم وجور واضطهاد الغزاة، وفي هذا السياق لا أجد حرجا في القول بأن الحقبة المشتركة الطويلة بين الأقباط والنوبيين تشكل في وجداني أثرا ليس بقليل ينضح دائماعلى طروحاتي عند الحديث عن إخوة في الوطن والإنسانية.

من أسباب اختلاف هذا الطرح أيضا أنني لا أنتمي لأي حزب سياسي أو أي منظومة سياسية، ولا أبغي من مثل هذه طروحات سوى إلقاء الضوء البارد على مشكلة أعراق ـ أنا منهم ـ ظلمت ظلما بينا لقرون طوال، وأخيرا كاتب هذه السطور لا يمارس الكتابة كحرفة تدر

عائدا، ولكنها هم إنساني ندلي بدلونا في كل القضايا التي نعتقد بأن لنا فيها وجهة نظر شخصية نجتهد قدر ما أمكن أن تكون محايدة وموضوعية وأمينة، نعود إلى قضيتنا النوبة وبالتحديد شمالها المظلوم، وإن كان جنوبها ليس أفضل حالا.

عانى النوبيون أشد المعاناة بسبب هذا الموقع الجغرافي المميز وهو ضفتا نهر وظهير شاسع ممتد على جانبيه وهو ما استكثره عليهم سكان البوادي وظلت هذه الضفاف الساحرة مطمعهم الرئيس منذ قرون وحتى اليوم، ولم يشفع للنوبيين استقبالهم وترحيبهم واندماجهم الطوعي بموجات الهجرات الأولى من كل أنحاء شرق الأحمر، لم يشفع لهم ذلك في تغيير نظرة الغزاة المتوجسة نحوهم، ولقد تراكمت التوجسات بدءًا من دخول العرب مصر وحتى اليوم، بالإضافة إلى نظرة التعالي والفوقية التي تعامل بها العرب مع كل السكان الأصليين – حتى هؤلاء الذين توحدوا معهم في العقيدة – هذه النظرة تركت جروحا لا يزال أثرها قائما حتى اليوم، ودليلنا على ما ندعي هو حال العلاقة اليوم بين العرب وسكان كل المناطق التي غزاها الكرد والنوبيون والأمازيج والأقباط والدروز والسريان والآشور.ز

وقد ظلت ذكريات الحصار والاسترقاق والجزية البشرية غصة في قلوب النوبيين ـ ومعاهدة القبط خير دليل ـ ولم يفلح مضي كل هذه القرون في تخفيف طعم مرارتها، وجاءت التهجيرات القسرية الأولى والثانية لتنشئ لأول مرة منذ آلاف السنين منطقة عازلة طولها مئات الكيلومترات تقطع التواصل الثقافي والتاريخي والاجتماعي والاقتصادي بين أعراق عاشوا معا على ضفاف هذا الشريان آلاف السنين، وصنعوا حضارة مزدهرة، صحيح

أنه كانت هناك صراعات تنشأ بين القبائل بحكم البيئة، لكن ذلك كان طابعا عاما في كل إفريقيا.

ومما شجع على نمو بذرة المؤامرة هو ما يشاع عن رفض الدولة المصرية نقل مواقع القرى التي سيغمرها النهر الى منسوب أعلى كما حدث مع مشروع اليونسكو لإنقاذ الآثار ـ هناك من يقول بأن مشروع نقل وإنقاذ آثار النوبة كان يتضمن السكان أيضا ـ مع أن تكاليف المشروع كانت أقل بكثير من تكاليف التهجير والتوطين، ولاحقا قرر البنك الدولي تقديم منحة لمصر لإعادة توطين النوبيين قريبا من بيئتهم القديمة، لكن تم الالتفاف على المشروع ومنحت المعونات لغرباء استجلبوهم من أقصى الشمال من ساحل المتوسط، وتم تبادل الاتهامات بين النوبيين والسلطات وظلت التوترات قائمة وتزداد يوما بعد يوم.

ومع الأخذ في الاعتبار أن معظم مناطق التهجير وخصوصا في صحاري شمال أسوان كانت مناطق وعرة بكل المقاييس، مما اضطرهم لهجرات أخرى قسرية داخلية وخارجية لكسب عيشهم، تناثروا في مهاجر جديدة وضعفت كثافات تجمعاتهم الأصلية، ومع انقراض جيل الآباء الأول وظهور جيل جديد ولد في المهجر ولم يعرف عن النوبة إلا ما حكته الجدات لهم في سنيهم الأولى، وهنا تبدأ المشكلة فالحالمين الجدد بالعودة حولوا القضية لحالة شجن تراثي تطفح في المناسبات، ولم تظهر قيادة واحدة لها تصور واضح يعرض حلولا واقعية للقضية ـ ونكرر كلمة واقعية ـ لأن مصطلح العودة الهلامي لا يعرض سوى شعارات، ومن منظور محايد أقول أنها غير قابلة للتطبيق، ومن منظور محايد أيضا أقول أن ضياع الرؤية

الواضحة ووحدة الهدف وصراعات الزعامة القبلية أضر كثيرا بقضية النوبة، فما بين مطلب التعويضات ومطلب العودة ومطالب أخرى تستفز السلطات من نوعية تدويل القضية والحكم الذاتي وأشياء من هذا القبيل، هذه الرؤية المضطربة أفقدت القضية دعما وزخما ليس بقليل.

والنوبيون على وجه الخصوص اختاروا إسلاما صوفيا هادئا أقرب الى طبيعتهم، ودليلنا أنه لم يثبت ـ على الأقل في مصر ـ أن نوبيا انخرط في تنظيمات أصولية أو سلفية من تلك التي تتخذ العنف منهجا لها، ورغم نشاط مكثف لجمعيات سلفية ممولة تمويلا مشبوها تركز في مناطقهم على تغيير طبيعة الإنسان النوبي المتسامح، إلا أن طبيعة سكان الضفاف الزراع ذوي الطباع الرقيقة المتذوقة للفن والجمال لا تزال تقاوم هذا الفكر المنحرف، وفي المقابل ترسخ الميديا على صورة نمطية لحارس عقار أو طباخ أو سائق وليس أكثر من ذلك، وكأن النوبي لا يصلح لغير هذه حرف.

كما أن العنصرية والتمييز والتحرشات العرقية التي طالتهم في ثقافتهم وعاداتهم من جيرانهم حيث لم يعد هناك تجمع نوبي خالص في معظم قرى التهجير فقد تم تسهيل الاستيلاء على أطرافهم ونمت نتوءات من قبائل تكن عداءً مستترا لكل سكان البلاد الأصليين وليس النوبيين وحدهم، ومن ثم تقع كل فترة مواجهات دموية بين الطرفين كان آخرها في قلب مدينة أسوان وراح ضحيتها عشرات القتلى والجرحى ومازالت التوترات حتى اليوم.

إن النوبيين اليوم في مفترق طرق وعليهم أولا أن يحددوا هدفا واضحا

محددا وواقعيا، وعليهم ثانيا أن يحددوا آلية تنفيذه، وعليهم ثالثا أن يختاروا من يتحدث عن قضيتهم بتفويض واضح وصريح، وعليهم أخيرا أن يمنعوا شبابهم عن تلك الممارسات الغوغائية التي بسببها يمكن أن يتآكل دعم القضية والزخم التي اكتسبته في الفترة الماضية، وخصوصا بعد الموقف الإيجابي الذي وقفه النوبيون متوحدين مع بقية المصريين المخلصين في أحداث نصف العقد الماضى ضد تيارات مشبوهة حاولت الاستيلاء بالتدليس على وطن وتحويله الى مستنقع طائفي عنصرى بغيض.

وأخيرا سلاما لأرض الذهب نوباتيا العريقة وسلاما لأبنائها المخلصين.

اليعاقبة.. رحلة البحث عن زعيم

منذ ما يزيد عن قرنين من الزمان أثار الرجل جدلا واسعا حول أهدافه ومقاصده من تلك الأحداث التي أثارها حينئذ، لكن ما اتفق عليه الجميع هو أنه حسب عليهم آنذاك زعيما، وحسبوا هم عليه حتى اليوم تابعين، عانى بسببهم ومات غريبا، وعانوا بسببه وعيروهم باسمه، هذا هو (المعلم يعقوب) وفي تسميه أخرى (الجنرال يعقوب) أول زعيم قبطي تنبأ قبل مائتي عام بما سيؤول إليه حال أبناء عرقه اليوم في وطنهم، لذا قام بما قام به في ظل الظرف السياسي الزماني والمكاني المتاح لهذه الحقبة التاريخية، وهي حملة نابليون ومعطياتها السياسية المعقدة، والتي هي مثار جدل محتدم حتى اليوم، ولم تتوقف محاولات ظهور زعامات في حقب مختلفة بعضها كان زعامات روحية بحكم المنصب الديني في عصور الاضمحلال وبعضها كان زعامات سياسية في عصور ازدهار

وإذا استثنينا رأس الكنيسة القبطية في نصف القرن الأخير وبعض زعامات الوفد التاريخية في القرن الماضي فلم تظهر شخصية ذات كاريزما نستطيع القول بأنها احتلت مكانة جديرة بكونها زعيما للأقباط، لكن يبرز التساؤل: ترى هل يحتاج (اليعاقبة) وخصوصا في هذا التوقيت إلى قيادة من هذا الطراز؟ وخصوصا بعد مستجدات خطيرة على الساحة، من المستحسن أن نمهد لهذا الطرح بمقدمة ربما نرى أنها ضرورية، وهنا ننوه بأن الكنيسة ليست مؤسسة سياسية، وبالتالي تظل مهمتها الرئيسية الجليلة هي

الإرشاد الروحي لأتباعها، وبذا يحسم الجدل الدائر حول دور المؤسسة الروحية (أمكنة وأشخاص) في العمل العام، حفاظا على هيبة الهيئة الدينية والنأي بها عن مهاترات سياسية، بالقطع هي لا تجيد استخدام مفرداتها الخشنة والمتغيرة والملتوية والتي تتصادم كثيرا مع الخلفية الوجدانية لمكونها البشري المتأثر بالعقيدة والتي لا يجوز تأويل مساراتها أو تلوينها تحت أي ظرف.

شيء آخر، أن النظام السياسي طيلة عقود طويلة مضت طالما استمرأ انضواء الأقباط تحت لواء الرئاسة الكنسية، ليسهل ارتهان طرف منهم وقت الحاجة لمساومة الطرف الآخر، وقد لجأ السادات ومبارك لهذا الأسلوب القمئ لإرهاب الأقباط الذين يبدون حساسية شديدة تجاه ما يمس رئاستهم الروحية.

شيء أخير هو أن تغييرا حادا قد طرأ على الأوضاع في نصف القرن الماضي وتغييرا أشد حدة طرأ في العقد الاخير يتطلب أن يبدأ الأقباط (بكل طوائفهم) فورا ودون إبطاء في البحث عن (قيادة مدنية) قيادة تتولى المجابهة والحوار وربما الصدام مع النظام أو مع الكيانات التحتية التي تعبث بمقدرات الوطن، قيادة من خارج مكونات الأكليروس الكنسي بكل أطيافه (حفاظا على هيبته)، وأيضا من خارج أية هيئة إدارية مرتبطة بالكنيسة (المجالس الملية ومجالس الكنائس وغيرها)، قيادة تمثل كل الطوائف، وذلك لإبراز الوجه الوطني المدني السياسي للقضية، باعتبار أن الأقباط وهم شركاء أصليون في ملكية هذا الوطن بصكوك غير قابلة للتشكيك، ولهم حق أصيل في نصيب عادل من السلطة والثروة، وأن

المطالبة بهذه الحقوق تتفق مع كل الأعراف، وأن تكوين آلية لتفعيل وبلورة هذه المطالب أصبح قضية ملحة، ولا شك سوف تلقى دعم وتشجيع تجمعات وأشخاص وكيانات طبيعية ومعنوية في الوطن وخارجه تؤمن بمبدأ (مختلفون في العقائد شركاء في الوطن)

وقد يتساءل البعض ألا يوجد على الساحة من يصلح لهذا الدور بدلا من البحث الذي قد يستغرق وقتا، وللإجابة عن هذا ربما يفيد طرح بعض الأفكار في هذا السياق للاسترشاد، نقول للاسترشاد لأن كل من يملك فكره في هذا الاتجاه عليه طرحها لتتفاعل الطروحات، ويمكن الخروج بتصور يكون بديلا لهذا التخبط على الساحة الذي أضر بالقضية.

أولا: بعد رحيل عدلي أبادير، وهو الأب الروحي لأول إرهاصات هذا الفكر (فكر إفراز زعامة مدنية) فالموجود على الساحة الآن هي فعاليات فردية، تنشأ مع الأزمات ومع الاحترام لجهود ونوايا أصحابها إلا أنهم معرضون لضغوط قد تفوق قدراتهم كأفراد، كما أن تصرفات كثيرة حدثت تحت ضغط الانفعال ورد الفعل المتعجل ربما أضرت في أحايين كثيرة بالقضية، أكثر مما أفادتها؛ لذا نعتقد أن الأوان قد آن لظهور بادرة لتجميع هذه الجهود في كيان واحد منظم بإطار قانوني داخل الوطن، ونؤكد على داخل الوطن، كيان يكون هدفه المعلن الواضح (بدلا من التخفي وراء شعارات مبهمة) هو الدفاع عن الشأن القبطي بكل مكوناته: هوية وثقافة وعقيدة وإعلاء مبدأ (مختلفون في العقائد شركاء في الوطن) كيان يستطيع إفساح المجال لأعراق ومكونات أخرى في المجتمع تواجه نفس منهج التهميش والتمييز وترغب في التوحد في الهدف نفسه، والتصدي

لكل الممارسات العنصرية الموجودة والتي تنشأ على الساحة في عموم القطر المصري وفضحها للرأي العام في الداخل والخارج كل ذلك داخل إطار مخطط سياسي إعلامي وثقافي مؤسسي مدروس.

ثانيا: البدء في الدعوة لتكوين حالة من (التوافق) بين الرموز الدينية للطوائف القبطية التي تمر الآن بمرحلة يتوجب على الجميع اجتيازها بسرعة، وطرح الخلافات (العقائدية) جانبا، ويرسل الجميع رسالة مفادها أننا جميعا نواجه خطرا محدقا يهدد هويتنا وثقافتنا وربما وجودنا نفسه، خطرا لم ولن يفرق بين طائفة وأخرى، وأن استمرار حالة النفور والتراشق بالتعبيرات الدينية الخلافية والتوجس المتبادل بين قيادات هذه الطوائف مما يسحب رصيد ليس بقليل من دعم نحن في أمس الحاجة إليه، وينعكس سلبا على مكونات المجتمع القبطي في الخارج وربما نطمع في مرحلة تالية في حالة أكثر توافقا (بالطبع خارج أمور العقيدة) بتشكيل لجنة دائمة للاتصال والتنسيق تجتمع بصفة دورية على ألا تتدخل في الأمور السياسية مطلقا (وما يشاع عن تكوين مجلس الكنائس المصري لهو بادرة جيدة بجميع المقاييس) ويكون مهمتها التنسيق مع (الجناح السياسي) إذا جاز التعبير..

ثالثا: يجب على كل من يتصدى لهذه الفعاليات أن يتجرد تماما من أي هوى شخصي في البحث عن زعامة أو شبهة متاجرة بالقضية أو تصفية حسابات مع كيانات أو أشخاص وأن يتحلى بالموضوعية والرزانة الفكرية وعلى استعداد لتحمل تبعات ردود فعل خشنة وتضحيات جسيمة متوقعة بل وحتمية سواء من النظام أو من الخلايا الكامنة

للعنصريين المتطرفين ويكون ملما بالمشهد إلماما تاما حتى لا تتآكل مصداقية الهدف النبيل ويكون جاذبا لنشطاء داعمين من إخوة الوطن وشركاء المستقبل الداعمين لمبدأ "مختلفون في العقائد شركاء في الوطن"، وهم كثر لكنهم صامتون لأسباب خارجة عن إرادتهم.

رابعا: على الأقباط، ومعهم المؤمنون بعدالة قضيتهم من كل الاتجاهات في الخارج، أن ينشئوا كيانا موازيا متحدا ومنظما، يجمع كل هذه المسميات المتناثرة ويفرزوا من بينهم بالأسلوب الديمقراطي السائد في مجتمعاتهم، قيادة موحدة – أيضا من خارج إكليروس مهجر– وتكون مقبولة من الجميع وتمثل جميع الطوائف بلا استثناء، وتحدد أهداف التجمع بالتنسيق مع الداخل في إطار استراتيجية متفق عليها، ولا مانع من أن يكون هناك جناحان واحد لأوروبا، والثاني للأمريكتين.

خامسا: يجب مراعاة أن كل ما سبق يجب أن يفرز في النهاية هيئة تأسيسية – متاح دخولها للجميع بغض النظر عن الدين أو الطائفة – يتفق على عدد أعضائها بين الداخل والخارج (إذا تعذر إنشاء كيان قانوني محلي) وتختار هذه الهيئة شخصية واحدة (نؤكد شخصية واحدة) من الداخل يلتف حولها الجميع وتكون مقبولة من كل الأطياف حتى يمكن إضفاء الشرعية من الجميع على دورها السياسي.

سادسا: نتصور أن باكورة نشاط هذا الكيان المأمول هو وقوف الزعيم الجديد على منبر الأمم المتحدة ليطالب بالحقوق المغتصبة لأمة طالت معاناتها على يد متعصبين جاء الوقت لإظهار جرائمهم والمطالبة

بمحاكمتهم دوليا ومحليا على جرائم إبادة جماعية وقتل واغتصاب وتهجير قسري، المطالبة بتحديد هوية كل القتلة في كل الأحداث منذ منتصف القرن الماضي وحتى اليوم، ولعل الحكم الذي صدر مؤخرا في قضية مقتل عشرات الشباب دهسا بالمدرعات ورميا بالرصاص سيكون أحد الأدلة الدامغة للظلم والجور الذي يعانيه عرق بأكمله ملايين من البشر حجمها يوازي حجم ست دول عربية مجتمعة كملاك أصليين يواجهون أبشع أنواع العنصرية البغيضة.

ما تقدم هو ما نعتقد أنه لبنة يمكن البناء عليها، ولا بأس من الاستفادة بتجارب شعوب وكيانات كثيرة سبقتنا وحققت ما تصبو إليه.. كما يجب أن نعبر مرحلة الصراخ والنحيب بأقصى سرعة الى مرحلة عمل منظم هادئ مدروس يخاطب العقل، مرحلة تضحيات اجتازتها أمم كثيرة لتنتزع احترام هويتها وثقافتها وعقيدتها، ولقد دفع الأقباط ثمنا باهظا، وقد حان يوم المطالبة باستحقاقات هذا الثمن الذي دفع مقدما.

أمة نازفة

رغم حرق الأعلام والشجب والشتائم والتظاهرات ومحاولات اقتحام السفارات لم ولن تعود أميركا عن قرارها، ونحن نعلم ذلك يقينا، ونعلم أيضا أن هذه الأساليب التي جربناها لعقود طويلة لم نحصد بها شيئا على الإطلاق، اللهم إلا المساهمة في زيادة المتراكم التاريخي في ذاكرة الشعوب عن مجتمعات متخلفة لا تملك سوى هذه الوسائل العقيمة وهي مناحات حنجورية مكررة في الميكروفونات نمارسها كشعيرة زائفة لتخدير الضمائر ليس إلا، ومواجهات خاسرة يقتل فيها العشرات من الشباب ثم لا شيء، وقد اقتربنا من بلوغ قرن كامل من الزمان نمارس هذه الأفعال أو بالأحرى ردود الأفعال ولم نتعظ ونتعلم أن نفس المقدمات تفرز نفس النتائج لكننا نفعلها كل مرة وكأنها لأول مرة.

وهنا يبرز التساؤل هل تستطيع أي من مجتمعات هذه الأمة النازفة أن يتخذ قرارا أو يتخذ إجراءً من تلك التي تتطلب دراسة وحشدا وتنظيما وتمويلا واستراتيجيات طويلة ومتوسطة وقصيرة المدى؟.. وإذا أرادت هل تملك الكوادر المؤهلة لذلك؟ وإذا كانت تملك هل توجد الإرادة السياسية الكافية؟ لذا كانت كلمة نازفة التي ذكرناها هي التعبير الأدق لحالة هذه المجتمعات، فهي في حالة استنفار مستدام، تعيش صراعات خارجية مع بعضها وصراعات داخلية بين مكوناتها بالإضافة للصراع الأزلي مع الزمن ومحاولاتها اليائسة البائسة للحاق به.

وقد خطط الإسرائيليون لهذا اليوم منذ سبعين عاما، خططوا بهدوء وروية وعلم واستعداد، ومن ثم حصدوا ناتج عملهم المتقن، فماذا فعل العرب طوال نفس المدة؟ والإجابة هي أنهم تقاتلوا وغرقوا في مستودع الغيبيات، وحولوا قضية سياسية جغرافيتها على الأرض ومصيرها بيد أصحابها إلى قضية دينية جغرافيتها ومصيرها في السماء، ودغدغوا مشاعر البسطاء واستراحوا لهذا الحل السحري وجمدوا الزمن عند القرن الرابع وعادوا القهقرى إليه يلوون أعناقهم، ولولا بعض مظاهر حضارة استهلاكية يرجع الفضل فيها لنوافير الزيت والغاز القدرية التي انبثقت من باطن الأرض، لعادت هذه المجتمعات لنصب الخيام في البوادي من جديد.

ومن هنا أصبح الإسلام السياسي هو الأب الروحي للقضية، يستمد منها استمراره وشرعية تواجده على الساحة، فمع كل مرة تلتهب الأزمة يعلن (النفير العام) ويتم لعن كل النظم الحاكمة في المنطقة باعتبارها نظما رجعية تسعى للتطبيع مع (العدو) ومهادنته، ومن ثم فالعودة إلى الدولة الدينية هو الحل، أو بالأحرى (الإسلام هو الحل) وتحت هذا الشعار وتفرعاته نشأت فصائل وأحزاب تقتات من ريع هذه القضية، وانقسم أصحاب القضية على أنفسهم وتقاتلوا على رقعة مهترئة لفظها الأعداء لأنهم اكتشفوا أنها لقمة مسمومة.

ونعود للسؤال الخطير الجاثم فوق الصدور، وهو ما دامت كل هذه الممارسات على الساحة لم تنتج شيئا.. فما هو السبيل لتعود القدس؟ وقبل الإجابة هناك سؤال أهم تجدر الإجابة عليه أولا وهو: هل فعلا نحن نريد استعادة القدس؟ ومع أن السؤال يبدو مريبا لكنني أعتقد أن كل

الأنظمة في هذه المنطقة يهمها بقاء الوضع على ما هو عليه ليستمر إلهاء هذه الشعوب بالعنتريات والبيانات على مدار الساعة، وصرف أنظارهم عن واقعهم المتردي وصم آذانهم بأصوات الميكروفونات الزاعقة بالدعاء على (أحفاد القردة والخنازير) وسد أنوفهم عن رائحة الفساد والمخلفات الصلبة والسائلة التي تغرق المصالح والشوارع.

نعود للإجابة عن السؤال المصيري كيف تعود القدس؟ لكن الإجابة عن هذا السؤال تبدو كدواء مر لا بد من تجرعه؛ فالقدس لن تعود بمظاهرة، لأن ما ضاع في معركة لا يسترد بمظاهرة، إذا القدس لن تعود إلا بمعركة، والمعركة ليست مع العدو فقط لكنها معركة مع الذات أيضا، فإذا كنا نريد النصر على العدو فيجب أن نحقق النصر على أنفسنا أولا، يجب أن ننتصر على الفساد المستشري كالسرطان في مجتمعاتنا المريضة، يجب أن ننتصر على الطائفية المقيتة، يجب أن ننتصر على مظاهر الفرز والتمييز والاستعلاء، يجب أن ننتصر على الإهمال والتواكل وثقافة الرزق الساعي إلى الأبواب، يجب أن ننتصر على العنصرية البغيضة وثقافة احتقار البشر بسبب أديانهم ومذاهبهم وأعراقهم، يجب أن ننتصر للمرأه وإعلاء شأنها وتمكينها وتجريم قهرها وإشراكها على قدم المساواة في كل مناحي الحياة، يجب أن ننتصر للحرية والعيش الكريم واحترام آدمية الإنسان واختياراته في الحياة، يجب أن ننتصر للعمل المتقن والبحث العلمي المثابر، يجب أن ننتصر على أخطبوط منظومة التعليم التي دمرت أجيال وخربت عقول وأفسدت أخلاق، يجب أن ننتصر لثقافة التخطيط العلمي المنظم الموصل للأهداف، يجب أن ننتصر لقضاء عادل نزيه مستقل، يجب أن ننتصر

للتداول السلمي المنظم للسلطة، يجب أن ننتصر للوحدة والتكامل على أسس علمية مدروسة، فإن انتصرنا لهذه القضايا ولو بعد حين مؤكد أننا سننتصر في كل القضايا المعلقة.

وقد يتساءل القارئ: "وكم يستغرق هذا؟".. ونجيب بأن هذا يتوقف على إرادة الشعوب، وهنا نوضح أيضا أننا لا نخترع العجلة فقد انتظر الصينيون مائة عام ليستعيدوا هونج كونج وماكاو، وهم في طريقهم لاستعادة تايوان، نعم انتظروا مائة عام حتى استردوا عافيتهم وتحولوا من أمة نازفة عليلة إلى عملاق اقتصادي وسياسي وتقني، ومن ثم فرضوا إرادتهم، أما من يرفعون شعارات هنا والآن فهم واهمون، فلا هنا ولا الآن، فأمامنا عدو مجهز بأحدث الاسلحة والتقنيات ونحن لا نملك سوى شعارات والشعارات لا تهزم الأسلحة ولا التقنيات.

هذا ما أعتقد أنه الحل، وأعتقد أيضا أنه الحل الوحيد لاستعادة القدس والجولان وكل أرض أُغتصبت، أما غير ذلك فسيكلفنا مزيدا من الدم والأرض، وللتذكرة فإن هذا الذي نكافح اليوم لأجل الحصول عليه ولا نستطيع، سبق وعرض علينا أضعافه ورفضنا بطريقة الشعارات والسب واللعن وها نحن نعود للندم على اللبن المسكوب.

أمة عالقة

عالقة بين السماء والأرض، حائرة بين الماضي والمستقبل، مترددة بين البداوة والحضارة وبين الموت والحياة وبين الغيبوبة والواقع، بين الاندماج مع بقية الكوكب وبين الانعزال في جيتوهات دينية مغلقة بين الدولة الوطنية وبين أمارات فرز وتمييز وعنصرية، وبين وبين وبين كثير من المقاربات والمقارنات، ولم يعد مكان لحديث آخر لهؤلاء سوى هذا المستنقع الآسن من البكائيات على الماضى واللطم على الأمجاد الهلامية لحقب من أنهار الدماء، وأي نقد أو تلميح بنقد لهؤلاء الذين صنعوا هذه المأساة أو تابعيهم أو تابعي تابعيهم يورد أصحابه موارد التهلكة، فقد تم تقديس الزمن وشخوصه وأزيائه وتراثه وأسمائه واعتبار كل ذلك هو النسخة (الأوريجينال) التي تجب ما قبلها وما استحدث بعدها من بدع وضلالات، وتظل هذه الأمم سائرة بظهورها عيونها شاخصة إلى الماضي أما الحاضر والمستقبل فهي غيبيات قدرية لا دخل لبشر فيها.

والأمم العالقة أمم خائفة مرتابة مرتعدة يسود عليها ثقافة المؤامرة الكونية من الجميع وعلى الجميع، لذا يصبح التجييش هو الحل، ميليشيات مؤدلجة في الداخل للدفاع عن عصابات حاكمة وتحالفات وأحلاف دينية في الخارج لمواجهة أعداء وهميين، وهو مثال للتجييش الديني السياسي الفج الذي يشطر الإنسانية.

وانفجرت شعوب كثيرة وتشظت وتحولت إلى كيان هلامي لا يرتقي

حتى إلى شبه دولة، وسوف تنفجر البقية الباقية على اختلاف عرقياتها وجغرافيتها وحتى مكانتها الاقتصادية، سوف تنفجر إيران وباكستان وماليزيا وإندونيسيا وتركيا وغيرهم كثر ممن يتموضعون في هذه الحالة طال الوقت أم قصر، وبالمناسبة الدول الأربع الأخيرة هي أحدث مشاريع الأحلاف الدينية، وبالمناسبة أيضا الدول الأربع كانت، ولا تزال، الملاذ الأول والآمن لغسل الأموال وحضانة الكوادر التي أسست ورعت ومولت هذا المشروع الذي زرع الكراهية في كل جنبات الكوكب.

واتقاء للشرر المتطاير حاولت وتحاول شعوب الهبوط الآمن لأرض الواقع بعد عقود من المعاناة، لكن الأمر يتطلب جهودا مضنية وإرادة صلبة وثقافة مستنيرة وحريات أساسية، حريات بقوانين واضحة حرية المعتقد الديني والسياسي، حرية تشكيل الأحزاب والجمعيات وحرية الإعلام والصحافة، حرية الفنون بكل فروعها السينما والمسرح والموسيقى والتشكيل، حرية البحث والتجريب والابتكار، فصل الدين عن السياسة والإدارة فصلا تاما بلا مواربة ولا تدليس، حقوق متساوية للمرأة والأقليات الدينية والعرقية.

ويأتى قبل كل هذا وذاك الدفع بالشباب إلى صفوف القيادة ليملكوا ناصية مستقبلهم ويرسموه بفكرهم ويتحرروا من ربقة استعباد فكري لطغمة من تجار الدين والفاسدين والمرتشين دمروا عقولهم ودفعوا كثيرين منهم دفعا للمخدرات والإلحاد والعنف والإرهاب، وهؤلاء الشباب هم الأمل الوحيد المتبقي لهذه الأمة المنكوبة، فهم ولا أحد غيرهم يستطيع التغيير لأنهم تفاعلوا واندمجوا مع وفي تقنيات العصر التي لا يفهمها ولا يستوعبها هؤلاء

الجاثمون على صدورهم، وهؤلاء الشباب هم من حاولوا في مصر وتونس والسودان، ويحاولون في العراق ولبنان والجزائر لأنهم مؤهلون لدخول العصر، أما هؤلاء الذين تجمدوا عند القرن السادس ووقفوا في وجه عجلة الزمن فمصيرهم المحتوم قادم لا محالة.

إنسان رمادي

أشعر بالاستفزاز، وأحيانا بالاشمئزاز، وأحيانا بهما معا، والسبب مقولة "حوار الأديان" التي يتاجر بها الكثيرون للتعمية على كم المخزون الهائل من التعصب والكراهية والعنصرية المختبئة في القلوب ضد كل من هو مختلف، والحقيقة أن بشرا عميت أبصارهم وسدت بصائرهم عن الحقيقة الساطعة سطوع الشمس وهي سنة الاختلاف والتنوع والتتابع والتتالي التي سمح بها الخالق وأرادها ويصر عليها (إن جاز التعبير) منذ بدء الخليقة، وهو العليم بأنها ضرورة لإعمار الكون واستمرار الحياة على هذا الكوكب، ولو شاء لوحد الأديان والألوان والأمزجة والأذواق والأجناس والثقافات، وهو بعلمه المطلق يدرك أن ذلك يتعارض مع القصد الإلهي السامي من خلق البشر، والقصد الإلهي السامي هو تكريم الإنسان بمنحه الإرادة الحرة دون سائر المخلوقات، والإرادة الحرة لا تتأتى إلا في وجود التنوع والاختلاف وتعدد الخيارات حتى يدفع الناس بعضهم بعضا لإعمار الكون، إلا أن بشرا مدلسين صنعتهم الالتفاف على المشيئة الإلهية اغتصبوا وكالة الخالق غصبا ليصبحوا وسطاء وسماسرة بين البشر وخالقهم، يحتكرون توزيع الكفر والإيمان بالعمولة ويبيعون الفتاوى وصكوك الغفران للبسطاء المطحونين بالسمسرة.

والحوار في حد ذاته هو وسيلة إحياء وتفعيل للرابطة الإنسانية بين البشر على اختلاف مشاربهم، فالمشترك الإنساني أسمى من كل

الاختلافات: دين أو مذهب أو لون أو عرق أو جنس، وفي حوادث احتجاز الرهائن والتهديد بقتلهم ينصح بإطالة أمد المفاوضات حتى يتم تفعيل الرابط الإنساني بين الرهائن ومحتجزيهم فتنشأ علاقة إنسانية يصبح معها العنف والإيذاء إجراءً صعبًا، وكلما طالت مدد احتجاز الرهائن كلما كانت فرص النجاه كبيرة، أما هذه المقولة المزيفة عن حوار أو تقريب بين الأديان أو المذاهب أو الثقافات... الخ، فهي كذبة كبيرة يطلقونها للتعمية عن نشاطهم وتمويلهم ودعمهم للمتطرفين المتعصبين، ثم كيف يتحاور بشر مع غيرهم وهم لا يتحاورون مع أنفسهم، فيجب أن يتحاور الإنسان مع ذاته أولا ليعرفها ويتصالح معها كي يتحاور مع الآخرين ليعرفهم ويتصالح معهم ويقبلهم مختلفين، فالعيش المشترك هو سنة حتمية قررها الخالق، فقد خلقنا لنعرف بعضنا بعضا لا لنقتل بعضنا بعضا، وهم يبتدعون مثل هذه المقولات للتدليس على أتباعهم لتسمية الأشياء بغير أسمائها، حيث لا يقبلون الغير المختلف، وهنا يحق التساؤل كيف يمكن التقريب بين الإسلام كمعتقد وبين المسيحية كمعتقد.. فهل يتنازل المسلمون عن نبوة مُحَمَّد مثلا؟.. أم يتنازل المسيحيون عن أحد أقانيم الثالوث ليتقابلوا في منتصف الطريق؟.. وهل يتنازل الشيعة عن أحقية علي وأبنائه في الخلافة؟.. أم يتنازل السنة عن أحقية عمر ومعاوية؟ وهل يطلي الأسود وجهه بمساحيق تفتيح البشرة للتقريب بين الألوان (على غرار التقريب بين المذاهب) ليصبح إنسانا رماديا مثلا (على غرار مايكل جاكسون) ليقبله الأبيض عضوا في مجتمعه، أم نتضرع إلى الخالق كي يعدل خطوط الإنتاج المتعددة الألوان لتقتصر على لون واحد يرضي العنصريين؟

ولم يكن الاختلاف والتعدد أبدا عامل هدم أو إضعاف لحضارات أو ثقافات أو عقائد، بل العكس هو الصحيح فهو عامل تكامل وثراء وازدهار، فلم تنقرض المسيحية عندما اختلف تابعوها وتعددت مذاهبهم، ولم تنهر الهند وبها مائة لغة، ولم تنهر أمريكا وبها مائة عرق، إذن لماذا لا يقبل الناس بعضهم مختلفين؟ ولماذا لا يثقون في حكمة خالقهم ومقصده السامي في هذا الاختلاف والتعدد؟.. مع أنهم يدركون تمام الإدراك أنه يشرق شمسه عليهم جميعا (مؤمنون وملحدون) دون استثناء، ومظلته ورحمته تظلل وتشمل كل من حاز على لقب إنسان، بل الأكثر من هذا تظلل وتشمل كل الكائنات على سطح هذا الكوكب.

إذن الكذبة المدلسين الذين يدعون الإيمان به والخضوع لمشيئته هم في الحقيقة منكروه ومتمردون عليه، فالإيمان به يعني قبول العيش المشترك مع كل بشر أيا ما كان معتقده أو لونه أو مذهبه أو جنسه، مادام الجميع خاضعين لقانون واحد يعتمد المواطنة أساسا وحيدا للتعامل، ويعتمد العقيدة علاقة خاصة بين الإنسان وخالقه، ولم يكتف العنصريون بأسلوب رفض الآخر المختلف وعزله وكراهيته، بل طوروا أساليبهم وانتزعوا الحق الإلهي في الحساب في اليوم الأخير فقتلوا وأبادوا وهجروا وطبقوا أسلوب أستاذهم ومعلمهم النازي العنصري الأول وزادوا عليه بلي أعناق نصوص عقائد وفسروها على هواهم ليجعلوها سندا مقدسا لجرائمهم التي يندى لها جبين الإنسانية.

أيها القتلة الكارهون العنصريون النازيون الجدد يحسب لأستاذكم العنصري الأكبر أنه لم يختبئ خلف النصوص، بل كان صريحا مع نفسه

معلنا رأيه على الملأ: الجنس الآري سيد الأعراق، أما أنتم ولأنكم محترفو التقية الخبيثة فقد اختبأتم خلف العقيدة واتخذتموها نسقا للدفاع عن عنصريتكم البغيضة فأهنتم العقيدة وأهنتم الإنسانية، لقد كان معلمكم رحيما فأباد الناس بوسيلة رحيمة وسجلت أفران الغاز باسمه، أما نحر الأعناق وحرق الأحياء والاغتصاب وقطع الأطراف والتهجير القسري واسترقاق السبايا فهي وسائلكم ستظل مسجلة بأسمائكم، والنتيجة الحتمية تدفعها شعوبكم كل طلعة شمس، ملايين البشر في الخيام تشوي أجسادهم حرارة الشمس في الصيف وينخر عظامهم صقيع الشتاء وتمتهن كرامتهم وتنكشف عوراتهم في الخيام المهترئة وطوابير استجداء حفنة دقيق كل صباح.

نعم نتحاور لكن ليس لتقديم تنازلات لإرضاء العنصريين النازيين الجدد، لكن نتحاور لإحياء الرابطة الإنسانية، نتحاور لكشف كل من ساهم ومول وشجع أفرادا كانوا أم أنظمة أو حكاما وكشفهم بالأسماء لتقديمهم للعدالة، فلا خلاص لهذه المنطقة إلا بمحاسبة وعقاب هؤلاء على جرائمهم، فلم تنهض ألمانيا وإيطاليا واليابان إلا بالقصاص من كل النازيين والفاشيست ومن دعموهم وشجعوهم أو حتى تعاطفوا مع طروحاتهم، ولن تنهض هذه البقعة الموبوءة من هذا المستنقع الآسن إلا باجتثاث هؤلاء القتلة وكشف المخطط الدنئ الذي نفذوه تحت ستار الدين، المخطط الذي بدأ تنفيذه في مثل هذا اليوم من حوالي نصف قرن، يوم الهزيمة الكبرى الهزيمة التي استغلها المتطرفون فسمموا عقول الشباب بمقولة العقاب الإلهي..

وحتى عندما أحرز المصريون قدرا من النصر على الأعداء قالوا أن الملائكة هي التي حاربت وانتصرت، ومنذ ذلك الحين استلقى الناس في المستنقع الآسن على ظهورهم فما يحدث في هذه البقعة الموبوءة هو عقاب إلهي ليس لهم حيلة في دفعه، وأي نهضة أو فوز أو انتصار فهو من صنع جيش الملائكة الذي يحارب عنهم فهم أمة الله المختارة وماعداهم قردة وخنازير تستحق الإبادة لكن نتحاور معهم ذرا للرماد في العيون.

أين أخوك؟

كيف امحت المشاعر الإنسانية من بشر إلى الحد الذي أصبحت فيه بعض الحيوانات حتى الضارية منها تفوق هؤلاء في الحياء الإنساني، تفوقها بفارق هائل، فالحيوانات لا تغتصب إناثها، فلا يضاجع ذكر الحيوان إلا أنثى بالغة وبكامل رغبتها، ولا تضاجع الذكور بعضها، ولا تعذب صغارها، وبعضها لا يأكل جيفة من فصيلته حتى لو صرعه في قتال، وكلها لا تتلذذ بقتل الضحية ولا تقتل لمجرد القتل، وقد تحولت بعض فصائل من البشر تظهر في الهيئة كإنسان تحولت إلى كائنات تسكنها أرواح شريرة لوحوش انتزع منها كل ما يمت للانسانية بصلة، إذ لا يمكن أن تصل درجة التوحش في كائن بشرى ـ من المفترض أنه إنسان ـ إلى هذه الدرجة من الانحطاط الهمجي والبربرية إلا إذا كان هذا المخلوق قد وجد بغير الطريقة التي نؤمن بها نحن أصحاب الديانات السماوية، فكيف تكون النفحة التي هي من روح الله النفحة الممزوجة بالسلام والحب والرحمة والترفق والإحساس والعطف وكل قيم الخير والحق والجمال، كيف تحورت هذه المقاصد الربانية المطبوعة على الجينوم البشري وحل محلها هذا القدر البشع من هذه الطباع البشعة، القتل السادي الممزوج بالتشفي والغل الطافح من الصدور، القتل الذي لم يستثنى منه أحد حتى الأم والأب، القتل غيلة وبنماذج مبتكرة فائقة الخسة والحقارة، قتل وتفجير ودهس وطعن وذبح للأبرياء: نساء وأطفال وشيوخ، قتل كل مختلف ومخالف وتفجيره الى أشلاء، ناهيكم عن

جرائم الزنا التي لم يسلم منها حتى المحارم، وحدث ولا حرج عن سرقة واحتيال ورشوة وكراهية وعنصرية وفرز وتمييز وكل الموبقات النجسة التي انتشرت في مجتمعات بكاملها انتشار النار في الهشيم.

كل ذلك تحت حماية مظلة كاذبة مضللة اختطفوها للتدليس على البسطاء وإقناعهم بأن هذه الجرائم هي بأوامر السماء، وفي رأيي أن لا علاقة لهؤلاء من قريب أو من بعيد بالسماء، ومن هنا يدفعنا الألم والغضب دفعا للتساؤل والبحث هل فعلا هؤلاء خلق إلهي من نسل آدم؟.. أم أنه آن الأوان للقول بأن هناك خطوط إنتاج أخرى أفرزت كائنات بهيئة بشرية لكنها معدومة الإنسانية منزوعة الضمائر، وفي هذا السياق ربما نجد دعما من النص التوراتي المثير لجدل المفسرين في الإصحاح السادس من سفر التكوين (تزوج أبناء الله من بنات الناس) ونحن نعرف من هم أبناء الله لكننا لا نعرف من هن بنات الناس، ومن أين جئن، وتزداد الحيرة حينما يذكر كاتب السفر أن ناتج هذا الزواج كان نسل مختلف.

ورغم أنني لا أحبذ استعمال نصوص دينية في طروحاتي لأسباب لن تغيب عن فطنة القارئ الواعي، لكننا كسرنا القاعدة لضرورة هذه المرة، والضرورة هي صراخ الدماء الصاعد الى السماء من كل جهات الأرض، لكن لا بأس من اقتباس نص آخر وهو من نفس السفر: الله يسأل قايين: أين أخوك؟.. ولأن قايين كان يعلم أن ما فعله هو ضد المشيئة الإلهية لذا فقد أنكر، وكان قد أخفى جثة أخيه، لكن ترى لو كرر الله السؤال اليوم ولهذه النوعية من البشر، مؤكد أن الرد سيكون بكل ثقة وبفكر منحرف

مغيب: لقد قتلته ولن ينتظر بقية السؤال ـ لماذا ـ ذلك لأنه مسلح بتأويلات نصوص مقدسة يدعي نسبها للخالق نفسه، هذه التأويلات ترخص له ارتكاب كل هذه الجرائم وهو موقن بأنه معفي من أي عقاب، بل على العكس هو موعود بمكافآت على الأرض وفي السماء، فقد سوغ له وسوق له منطق فاسد أن مخلوقا وجد بمشيئة إلهية تم تفويض مخلوق مثله بنزع حياته لمشيئة إلهية أيضا. كما وأن السيد داروين في نظريته الشهيرة لا يزال يصر على أن هناك خط إنتاج آخر للبشر وهو ما يعزز مقولتنا بأن مسألة الأخوة الإنسانية التي نتشدق بها هي في الحقيقة وهم كبير، فالمشهد على الساحة لا يحتاج لدليل وهو تكرار لما فعله هتلر وإن اختلفت المسميات والأشخاص والأدوات.

واليوم لم يعد قايين مهتما بالسؤال الأزلي: أين أخوك؟ فقد أصبح القتل وسيلة مرخص بها من السماء، فقد ابتدعوا لهم إلها ضعيفا يحتاج لمن ينصره على أعدائه والنصر لا يتأتى إلا بالقتل، قتل الأبرياء، قتلهم من أجل الأرض فالأرض أرض الله، قتلهم من أجل السلطة فما الحكم إلا لله، قتلهم من أجل دين الله حتى لا تكون فتنة، قتلهم من أجل مذهب الله، فالله لم يعتمد سوى مذهب واحد والباقون خوارج، قتلهم من أجل العرق المفضل عند الله.

إنها مأساة الإنسانية اليوم، إذ القتل أصبح غاية ووسيلة حياة وطقس يومي، فهو لا يتوقف فهناك ذريعة كل يوم وهناك دافع كل يوم لكي يستمر سريان نهر الدماء لكي يروي عطش هذه الكائنات أشباه البشر.

والخبراء يعرفون أنه عند اختطاف رهائن فإنه من الضروري إطالة مدى فترة التفاوض مع الخاطفين حتى يتسنى نمو علاقة إنسانية بين الخاطفين والرهائن، هذه العلاقة عندما تنمو ولو بقدر ضئيل تنشئ اتصالا إنسانيا، وكلما زادت مدة التفاوض كلما نمت العلاقة الإنسانية بين الطرفين.

وبالتالي تقل فرص استعمال العنف نتيجة نمو هذه العلاقة الإنسانية، أما على الساحة فنرى أعراق عاشت وتجاورت لمئات السنين ولم تنشأ بينها ولو بصيص من هذه العلاقة، فقد أصبحوا بين عشية وضحاها فرق متقاتلة كل يرغب في إبادة جاره ومحوه من خارطة الوجود ولم تعد السماء تتساءل: أين أخوك؟ فالثابت أنهم ليسوا إخوة كما كنا نظن.

بين أتاتورك وأردوغان.. السلجوقي الحائر

استقر في وجدان أغلب الشعب التركي أن دولة مدنية حديثة هي السبيل الوحيد لازدهار أمتهم، أما حقبة الدروشة والمغامرات التي كادت أن تمحو اسم تركيا من خريطة العالم فقد بين لهم أتاتورك مساوءها على نحو لا يقبل أي تشكيك أو مكابرة، وخصوصا من هؤلاء الذين ظلوا حالمين بمجد وهمي وحروب دموية جلبت على المنطقة وبال الفقر والجهل وعادت بها القهقرى قرنا من الزمان وأنشأت عداوات تاريخية لا تزال آثارها كامنة في النفوس حتى اليوم، فبعد وفاة الإمبراطورية إكلينيكيا وتقسيم ميراثها الجغرافي بقي الميراث التاريخي، وهو خلافة المسلمين أو إمارة المؤمنين، حيث بقي اللقب حائرا يبحث عن وريث شرعي مستحق، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من الصراع على الإرث المزعوم وهي مرحلة أغرت الكثيرين تحت وهج الشعور بالحنين الجارف للأمجاد السالفة أغرتهم بدخول المعترك، بدءا من الشريف الحسين بن علي حتى فؤاد الأول ملك مصر الذي زين له الإخوان المسلمون أنه الوريث الشرعي والوحيد المؤهل لبعث الفكرة من جديد، وظلوا على حال نفاقه حتى مات، ولما فشلت الفكرة قرر حسن البنا أن يتولى الإخوان بأنفسهم المداومة على إحياء المشروع والبحث عن وريث خشية ضمور الفكرة واندثارها، وخصوصا بعد أن نقح التيار الجديد في تركيا الدستور من كل ما يتعلق بالمشروع الإسلامي ونفض يده أمام المجتمع الدولي من هذا المشروع بإعلان تركيا الحديثة دولة علمانية

صريحة فصل فيها الدين عن الدولة فصلا بائنا، لأن الجنرال بحسه المرهف اكتشف أن النية مبيتة لما هو أسوأ من تقسيم ميراث الرجل المريض وهو تمزيق جسد تركيا نفسه، فكان أن سابق الزمن ليمنع المأساة واتخذ من الإجراءات التي كان من أهم نتائجها أن تركيا نجت بأعجوبة من مصير مظلم كان ينتظرها لولا أن قيضت العناية الإلهية أن يظهر هذا الرجل العظيم على الساحة في الوقت المناسب، وتم توقيع معاهدة لوزان التي لو تأخر توقيعها واعتراف المجتمع الدولي بحدود الجمهورية الجديدة فلربما كان للتاريخ شأن مغاير.

إلا أن أعداء أتاتورك والتيار القومي في تركيا وخارجها ظلوا على الحنين للماضي، وإن كان هذا الشعور قد خبا مؤقتا تحت سطوة الشعبية الجارفة لأبطال التحرير أتاتورك ورفاقه، لكنهم ظلوا مؤمنين بفكرة إحياء الخلافة فبدأوا بمغازلة أتاتورك نفسه وطلبوا أن يقترن اسمه بأمير المؤمنين، لكنه رفض وأمعن في التوغل في علمانية الدولة الجديدة حتى يتقي شر المتربصين، فكان أن ألغى الخلافة رسميا وأعلن الجمهورية حتى يقطع الطريق تماما أمام الحلفاء وليبدأ عصر نهضة تركيا الحديثة وقد كان.

ومما لا شك فيه أن انهيار مشروع الخلافة العثمانية على هذا النحو الدراماتيكي كما سبق وانهارت دولة السلاجقة بالإضافة لذكريات الخروج المهين من الأندلس.. كل ذلك ترك مرارة في نفوس كثيرين كانوا قد تعلقوا بأهداب آل عثمان واقتنعوا بأن هذه الحروب الدامية هي فتوحات مقدسة، ولذلك وغيره استكانت شعوب كثيرة لاستعمارهم ودفعت ثمنا باهظا لا تزال تسدد أقساطه بالفوائد المركبة حتى اليوم.

وظل أعداء أتاتورك في الداخل على العهد؛ كونوا خلايا نائمة أخذت في التوغل في المجتمع التركي بخبث شديد فقد تركوا صور أتاتورك معلقة على جدران مكاتبهم لكنهم بدأوا النخر في عظام الدولة وتشجيع الحركات المتطرفة في مستعمراتهم القديمة، وعندما استقرت منظومة الاتحاد الأوروبي تعلق كثير من الأتراك المستنيرين بأمل الالتحاق بركب النهضة في أوروبا التي يعتبرون أنفسهم جزءا منها، إلا أن الأوربيين رغم إطلاق مفاوضات تمهيدية جادة مع الحكومة التركية كانوا يعرفون جيدا الوجه المستتر الذي يخفيه قسم من الأتراك ليس بقليل، وهو وجه المتأسلمين الوارثين لتراث آل عثمان وآل سلجق الذين يعتبرون دخول الاتحاد الأوربى فتحا جديدا، لكن الأوروبيين الذين سبق ولدغوا من هذا الجحر لا يمكن أن يسمحوا للثعبان المختبئ فيه أن يلدغهم مرة أخرى، بالإضافة إلى غزو قبرص الذي اعتبره المتطرفون في حينه نصرا مؤزرا، إلا أنه أصبح اليوم العقبة الكؤود أمامهم وخصوصا بعد أن أصبحت قبرص عضوا كاملا بالاتحاد الأوروبي، وكانت الطامة الكبرى بتولي نجم الدين أربكان زعيم حزب الرفاه الحكم وظهور الوجه الحقيقي الذي حاول فلول آل عثمان إخفاءه، إلا أن السيد أربكان نزع القناع وكشف النوايا على الملأ وهي الدولة الدينية، وهو يعلم تماما أن هذه التوجهات كفيلة بقطع الطريق أمام تركيا للانضمام إلى الكيان الواعد، لكنه وبأسلوب التقية الخبيث ظل على اتصاله بالاتحاد الأوروبي زاعما أن هناك مفاوضات للانضمام لكنه كان يعلم تمام العلم أن شبهة دولة دينية وقيام مثل هذه الأحزاب المشبوهة قد نزع آخر أمل في انضمام تركيا للاتحاد الجديد.

ومن هنا ومع إثارة عواطف البسطاء باسم الدين، تمكنوا من حصد أغلبية نيابية واعتلوا السدة وبدأوا في تنفيذ مخطط مشبوه بدأت ملامحه في الاستيضاح بعد وصول الإخوان المسلمين لكرسي الرئاسة في مصر، وهنا تجدر الإشارة أن الأمريكيين ـ وهم الحليف الرئيس للنظام الإسلامي الجديد ـ لم يكن لهم موقف واضح من انضمام تركيا للاتحاد الأوروبي فهم لم يؤيدوا ولم يعترضوا، والأغلب أنهم كانوا على علم بالنتيجة مقدما، فتركيا بنظام أردوغان مرفوضة تماما من القوى الرئيسة في الاتحاد وعلى رأسها ألمانيا وفرنسا، وهنا استغل الأمريكيون حالة الإحباط، وبدأوا في التخطيط لمشروع جديد يرضي غرور حليفهم الرئيس في المنطقة، وهو مشروع الشرق الأوسط الكبير حيث يتولى الأتراك المهام الرئيسة بالإنابة عن الأمريكيين لإبعاد الشبهات بمساعدة إمارات نفطية وتنظيمات الإسلام السياسي في كل المنطقة، لتبدأ الفوضى بتدمير القوى التي قد تعيق المشروع وعلى رأسها مصر وسوريا، وكانت المرحلة الأولى قد تمت بتدمير العراق والثانية تقسيم اليمن والثالثة تدمير ليبيا، وفي مرحلة تالية بعد إنهاء المشاكل مع إيران يصبح الحلف الجديد واضح المعالم: تركيا وإيران، ومعهما بعض الإمارات النفطية والإخوان المسلمون في مصر وفروعها الخارجية في الكويت والأردن، وبالطبع الفرع الرئيس في غزة، ومن ثم يصبح المناخ مهيئا لعودة كل البعثات الإرهابية إلى مواطنها الأصلية تتقاتل في ما بينها كما تشاء..

أما عن إسرائيل فسيكون لها دور في مرحلة قادمة بعد أن تكتمل مراحل المخطط، وهو الآن في مرحلة تدمير سوريا، وفي النهاية تكتمل

الصورة تسيطر حركات الإسلام السياسي على المنطقة، وبالطبع ستبرز الزعامة التاريخية زعامة العثمانيين الجدد الذين كان لهم السبق والريادة في تنفيذ المخطط، وربما تتم مبايعة أردوغان أو من يحل محله خليفة للمسلمين أو أميرا للمؤمنين الجدد، ويظل الأتراك حائرين بين الحنين لأمجاد أجدادهم وبين الصورة التي لا تزال معلقة على كل الجدران صورة العلماني الأول أبو الأتراك المستنيرين، وأبو نهضة تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك..

ترى لمن ينحاز السلجوقي الحائر: إلى أجداده الفاتحين العظام سلجق وعثمان؟.. أم للرجل الذي فتح له أبواب المعرفة والتقدم والحضارة؟

بين الحقيقتين

الأولى يوم ولدنا ونمنح اسما نكنى به، والثانية يوم نموت ويتم سحبه ونصبح مجرد جثمان، وهما حقيقتان مؤكدتان موثقتان: شروق وغروب، بداية ونهاية، حياة وموت، ولا مجال لأي تشكيك في أي منهما على الإطلاق، والحقيقة الأولى تبدأ بصراخنا لنسجل حضورنا ويبدأ العد التنازلي، والثانية تنتهي بالصراخ علينا لنوقف العد عند الرقم صفر ونوارى التراب، والمسافة بينهما هي أعمارنا هو المشوار المضني اللاهث بحثا عن أو في انتظار شيء لا نجده أو لا يجئ، ونظل في الانتظار والبحث، وإن جاء أو عثرنا عليه فهناك الذي يليه ونظل طول العمر في البحث والانتظار، وهكذا دواليك، ولم يمت إنسان إلا وكان باحثا عن أو في انتظار شيء ما.

وبعدد مليارات البشر السابقين والآنيين واللاحقين هناك شريط مسجل عليه دور كل واحد، وهو مختلف تمام الاختلاف عن دور غيره.. تباديل وتوافيق، أفراح وأتراح، مرض وصحة، أمل وإحباط، فشل ونجاح، والإنسان لا يتعظ من النسخة اليومية لحياته تشرق شمس وتغرب شمس وينام الناس مكدودين مرهقين بؤساء أو سعداء، لكن يجب أن يناموا مجبرين؛ فقد حان وقت الرقاد أو الموت الصغير، ونصحو لنكرر نفس الأشياء أو بالأحرى نفس الأخطاء.

وفي رحلة الحياة يتساقط الأحبة في الطريق، وتبدأ رحلة الحزن المقررة

على الجميع وبدأت عندي مبكرا، فعندما رحلت أمي وأنا لم أتم العقد الأول ذقت طعم الموت لأول مرة، فراق مر وفقد مؤلم ووحدة لعينه، برغم أنني كنت أعرفه قبلا لكن عن بعد.

وكلنا بلا استثناء لدينا أمل كاذب في أن يستثنينا الزمن من أحكامه التي لا نقض فيها ولا إبرام، ولكن هيهات فما دمت قد ولدت بزرع بشر في يوم الحقيقة الأول فالنهاية محتومة، سيجئ يوم الحقيقة الثاني ولا نفع لكل تلك المعارك مع الزمن فكلها خاسرة حصيلتها قبض الريح، فلا شد الجلود ولا شفط الدهون سيعيد الشيخ الى صباه ولن يؤخر ثانية من اقتراب يوم الحقيقة الثاني.

والعاقل من يكف نفسه شر الدخول في معارك خاسرة محسومة نتائجها مقدما، لكنها الرغبة المحمومة في أن ننال استثناء لم ولن يناله أحد على الإطلاق في كل الخليقة، وبين الحقيقتين الأزليتين الأبديتين لا توجد حقائق مطلقة، كلها نسبية أو مختلف عليها أو نالت منها المستجدات، بدءا من دارون وآينشتاين ونيوتن، وانهارت الشيوعية وتترنح الرأسمالية وكل يوم تولد نظريات وما تلبث أن تترنح غائبة أو منسية أو مشكوكا فيها، حتى العقائد تتعرض لهزات ضارية وحتى دوران الأرض وكرويتها لم يسلم من تشكيك.

لكن تظل الحقيقتان صامدتين ساطعتين، ولأننا لا نتذكر لحظة الحقيقة الأولى؛ فنحن نتعامى عن الثانية، يأخذنا كبرياؤنا ونشمخ ونتجبر ونعتقد أننا مخلدون، وفجأه يضربنا كائن جبار لا يرى إلا تحت المجهر ويطرحنا

أرضا لا نستطيع حتى أن نهف ذبابة من على وجوهنا، ونقاوم بشراسة ليس حبا في الحياة، ولكن خوفا من المجهول المغلق على عقولنا وهو الحقيقة الثانية، وبرغم ما قيل ويقال وسيقال فيها وعنها ستظل محجوبة مبهمة مخفية الحديث عنها تعافه الأنفس ويقبض القلوب

وما بين الحقيقتين هي مساحة دورك في الحياة: صغيرا كنت أم كبيرا، في هدوء أو في صخب كل يؤدي دوره ويرحل ويليه غيره، وتظل العبرة ماذا فعلت وكيف أديت دورك وكل منا سيجيبه ضميره لو سأله بصدق.

وبين الحقيقتين يجري الصراع المرير داخل الثالوث البشري، جسد بشهواته ونزواته وغرائزه، وروح تنشد السمو والنقاء والعفاف، ونفس حائرة في التوفيق بين النزعتين، وإن كانت أحيانا أمارة بالسوء، وتظل جولات المعارك حتى النفس الأخير، وهم المفلحون من استطاعوا أن يجعلوا الجهاد من أجل القيم والمبادئ والمقاصد السامية هو سبيلهم في الحياة.

جمهوريات الفول وممالك الزيت

في البدء كان الفقر يعم الجميع: شرق الأحمر وغربه، لكن المصريين كان لديهم نهر يفيض ويطمي ضفافا ممتدة على جانبيه، ثم ينحسر الفيضان ويبدأ موسم ازدهار مؤقت، حيث تنشط أعمال الزرع والحصاد، بينما ترفع صلوات الاستمطار في كل أرجاء شبه الجزيرة لينمو بعض الكلأ، الذي لم يكن يغني ولا يسمن، إلى أن بدأت بشائره في الظهور منتصف القرن الماضي، فكان (الزيت) الذي (خيم) على سطح المنطقة، وتغيرت تضاريس كثيرة وتحولت قبائل (قحطان) من حال إلى حال، من الفقر المدقع الى الثراء الفاحش، ولم تكن هناك مرحلة انتقالية لتهيئة البشر للولوج لمرحلة انفجار الثروة، تلك الحالة الجديدة والغريبة على ثقافتهم وبيئتهم، وعندما نقول جديدة وغريبة فنحن نعني أناسا يقول التاريخ أن ثقافة الوفرة لم تدخل بيئتهم على الإطلاق، فتلك بوادٍ جدباء ومناخ وعر وبشر ذوو خصائص تتناسب مع بيئتهم..

عاشوا قرونا من الصراعات بين القبائل المتناحرة على الأرض والماء والكلأ، ولم ترشح أبدا تلك البوادي لأي نهضة، فلم يكن هناك مقومات ولا ظواهر من أي نوع لا على الأرض ولا تحت الأرض، فلا زرع ولا ضرع ولا ثروات ولا بشر مؤهلون، لكن اندفاع نوافير النفط فجأة قلب الموازين قلبها رأسا على عقب في السياسة والاقتصاد والاجتماع وحتى في الدين، وتحولت تلك البؤر المهملة إلى محط أنظار الجميع ودخلت قسرا

ضمن خرائط تحالفات كونية بعد أن كانت بقعا مهملة لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم، وزاد الأمر احتقانا مع أوائل الخمسينات بعد انقلاب الضباط في مصر على الملك فاروق، وبدء ظهور ملامح التوجهات الليبرالية للضباط الشباب، وتحولهم من (حركة مباركة) إلى (ثورة) وتواكبت في نفس الوقت مع دعوات عفلق ورفاقه في الشام، وهم طليعة البعثيين الذين أظهروا العداء مبكرا لتلك الإمارات الدينية التي يتناقض نظامها مع دعواتهم لنظم علمانيه صريحة و(بعث) جديد للقومية العربية مما أقلق آل سعود، وظنوا أنها تعني مشاركتهم في الثروة الصاعدة من تحت الأرض، وخشي الملك العجوز من تكرار سيناريو الباشا الكبير مُحَمَّد علي، الذي غزاهم وترك لديهم نبتة عداء مستتر تحت السطح منذ قرنين تنمو كلما سقيت بين الحين والحين، وخشي الرجل أيضا على توقف شلال الدولار الذي انهمر على خزائنه، كما أقلقت هذه الدعوات مستغلي الآبار البكر التي باتت شريان الحياة للآلة الجبارة التي دارت هادرة في الغرب كله، ولم يعد في مقدور أحد إيقافها..

واتحدت رغبة المنتجين والمستهلكين في التحالف على المصريين بغرض كسر شوكتهم مبكرا قبل تفاقم الأمور وخروجها عن السيطرة، وعلى الأخص مع تنامي سطوع نجم عبد الناصر.

وفي أول أعراض الكبرياء والأنفة بعد تبدل الأحوال تم إيقاف طلعات المحمل التي كانت تخرج بكسوة الكعبة الشريفة، ومعها تموين التكايا التي أنشأها مُحَمَّد علي لإعالة فقراء الجوار النبوي وحجاجه، وبدأت فصول من التحولات في العلاقة بين جمهورية (الفول) الفقيرة ومملكة (الزيت) الغنية،

وظهرت أول بوادرها عندما ذهب المصريون للعمل لدى (أبناء عمومتهم)، وظنوا أنه يشفع لهم تمسكهم بتاريخ أنسابهم وأسماء قبائلهم العربية وحتى أسماء محلاتهم الجغرافية القديمة في وديان نجد والحجاز لتأكيد انتمائهم إلى شبه الجزيرة، لكن ما حدث صدمهم عندما سلموهم للكافلين الذين ساموهم أنواع العبودية وفضلوا عليهم البشتون والبنغال، ومع تضخم الثروات وتمددها تضخم معها وتمدد شعور تمايز واستعلاء على (آكلي الفول) قابله المصريون بشعور ازدراء ونظرة فوقية (للبدو) استنادا إلى رصيد حضاري عادوا للتمسح فيه بعد فشل مناورة الانتساب إلى (قحطان أو عدنان) لأسباب اقتصادية بحتة، وبدأت مراحل من العداء المستتر تعلو تارة وتنخفض أخرى، وتتراوح بين معيرة المصريين بأكلتهم الشعبية مرورا بملاهي شارع الهرم حتى انتسابهم لعبدة الأصنام الفراعنة، والأخيرة توغر صدر العرب المصريين أكثر لمضمونها المستتر حيث تعني تقرير انفصام عرى أي رابطة عرقية قد يلمح إليها مستقبلا، ولا أعرف لماذا يعير المصريين من (أشقائهم) بفقرهم وتبرز هذه المعيرة بصورة حادة في الأزمات..

وأذكر أننا كنا في طبرق الليبية إبان حرب أكتوبر، وعندما نشب الخلاف بين السادات والقذافي كان الصغار يهتفون خلف الحافلة التي تحمل أرقاما مصرية بما معناه أننا باعة الفول وزراعه وآكلوه، وأنا أحب الفول ككثير من المصريين، وكنت أشعر بالغضب حيث لا أجد مبررا لتعيير شعب بأكلته المفضلة، وأستغرب وأنا في طريق العودة للقاعدة التي كنا نعسكر فيها حيث قرى من الصفيح الصدئ لأناس صدورهم مهترئة من

الدرن في أكبر وأغنى جمهوريات (الزيت)، ولا أحد يدري أين ذهبت مليارات المليارات مدخول الزيت والغاز في كل ممالك الزيت وإماراته وجمهورياته منذ أكثر من نصف قرن؟ لكن ربما يمكن الاستدلال على طرق أنفاقها من أمثلة عديدة، كشراء جبال الجليد من آيسلندا أو استيراد التربة من هولندا لزراعة القمح في الربع الخراب والتباهي بتصديره وهو يتكلف عشرة أضعاف استيراده علاوة على استنزاف مخزون المياه الشحيح أو تمويل الجيش الجمهوري الأيرلندي أو تعويضات لوكيربي، علاوة على مغامرات صدام حسين الحربية ومغامرات القذافي الإفريقية بالإضافة بالطبع للبند السري المقدس الذي لا يجرؤ أحد على الاعتراض عليه أو طلب استبيان تفاصيله، وهو ما أنفق (في سبيل الله) وخصوصا ما تم ضخه في مصر والسودان والصومال، وقد بدأت الأخيرة في جني ثمار هذا التمويل السخي وتحولت الى مرتع لعصابات إرهابية ولولا قلوب رحيمة تغيث أطفال جوعى عرايا لتحولت الصومال إلى أكبر مقبرة مفتوحة في العالم والثانية انشطر منها جنوبها كدفعة أولى وجاري لاحقا عمليات انشطار أخرى، والأولى جادة في الطريق بإصرار وخصوصا بعد استيلاء الملتحين وأنصاف الملتحين على مصير الدولة المصرية وغيرهم كثير الآن في سوريا ومالي ونيجيريا.. الخ

هذا هو حال الأمم التي تنفجر فيها الثروات بلا عمل كورثة سفهاء، وعدا إمارتين أو ثلاثا استشرفت المستقبل بعد نضوب الخزين، يعيش الباقون ثقافة استهلاك ساذجة يستغلها المنتجون الأذكياء في الغرب لامتصاص الفوائض أولا بأول، تارة في سلاح تأكله رمال الصحراء،

وأخرى في أوهام نقل التكنولوجيا، وثالثة في شوارع لندن وباريس حيث بطاقات (الفيزا) تفتح نهر التحويلات على مدار الساعة، والباقي في خزائن سويسرا (الآمنة) واستثمارات هائلة في أمريكا وأوروبا، ونسي الجميع أنه إن عاجلا أو آجلا سيتوقف شلال العملة الخضراء المنهمر، وربما قبل أن تتوقف نوافير الزيت لأن البحث الجاد جار عن بديل أرخص وآمن وهو هدف متوقع قبل عقد من الزمن على الأكثر..

ولو كانت هذه الأموال في أيادٍ رشيدة لنهضت هذه المنطقة نهضة جبارة، لكن هؤلاء سيندمون وسيحاكمون يوما على كل سنت هو ملك الشعوب وليس ملك الحكام، ولم يكن من باب السذاجة أن يتضافر الأوربيون لمعاونة رومانيا وبلغاريا وبولندا وتأهيلهم للالتحاق بأقرانهم في الاتحاد الأوروبي، لكن السذاجة أن ملوك الزيت وأمراءه نسوا أن لديهم جار لصيق حرم من هذه المنحة القدرية وهي جمهورية أخرى لكن ليست جمهورية (فول) كمصر، لكنها جمهورية ما هو أسوأ من الفول إنها جمهورية القات، نسوا أن يأخذوا بيدها (ومن المؤكد أنهم أبناء عدنان وقحطان أيضا) ونبذوها لفقرها وسيدفعون الثمن غاليا فقد تحول اليمن (السعيد) إلى بؤرة حقد وفقر وبؤس وتطرف ومأوى لكل الراغبين في الانتقام وتدمير المعبد على رؤوس الجميع..

ولو تم تأهيل وتنمية اليمن بنصف في المئة من دخل مجلس التعاون لكان الآن عضوا على قدم المساواة، بدلا من تركه نهبا للصراع بين القاعدة والحوثيين والأمريكيين، وسوف يدفع الجميع الثمن، أما الارتكان على بناء أسوار وجدران للعزل بين جمهوريات الفقر أو (الفول) وبين

ممالك الثروة أو (الزيت) فهو وهم كبير ولده وهم أكبر، وهو وهم الغنى المستدام.

دوائــر

أو بالأحرى مدارات أو دورات بدءا من دورة الحياة حتى دورة الأرض، مرورا بدورة الماء والكهرباء وحتى الدورة الدموية ودورة رأس المال، والدورة أو الدائرة أو المدار هو النظام الكوني لكل الأحياء والجوامد مسار حتمي مرسوم، تدور الأرض حول الشمس ويدور القمر حول الأرض وتدور الإلكترونات حول النواة، والدورة أو الدائرة أو المدار هي تطبيق للقانون الطبيعي الأول الحاكم للكون كله ـ المادة لا تفنى ولا تخلق من عدم ـ أي العود على البدء، أي دائرة مكتملة مغلقة.

ويدور الإنسان دورته يتقابل ذكر مع أنثى وتنشأ العلاقة الحتمية اللازمة لاستمرار الجنس البشري ويولد انسان يتسلق محيط نفس الدائرة طفلا وشابا وشيخا ثم يعود من حيث أتى وتكتمل الدائرة، وهكذا، وتبدأ دورة الماء بغيمة قادمة من فوق بحر أو محيط ثم يسقط مطرها على هضبة وتشق طريقها إلى من حيث أتت ثم تتبخر في غيمة أخرى وتكتمل الدائرة، واذا حدث وتدخل الإنسان المخلوق ليعطل اكتمال أو يعدل مسار أي دائرة في أي من مراحلها يحدث ما لا تحمد عقباه، والعالم الآن في انتظار كارثة عندما تدخل الإنسان لتغيير مسار جسيمات لا ترى بالعين المجردة عن دورتها الطبيعية فانطلق مارد جبار يحاولون السيطرة عليه ولكنه انطلق والكوكب على حافة الهاوية، وتدور الدوائر على كل الكون إنسانه وحيوانه ونباته وجماده ويفنى كل شئ متحللا ويعود إلى صورته الأولى، يعود

الإنسان الى التراب وتنحل كل المركبات إلى عناصرها الأولى ثم تعود فتتفاعل لتكون نفس المركبات من جديد.

وهناك دورة زمنية لكل الأحياء والجوامد بعضها عمره ساعات أو ربما أيام، والبعض ربما قرون أو آلاف أو ملايين السنين، والكون اللا نهائي بمجراته كائن حي تحكمة دائرة حياة منتظمة ومنضبطة لا يحيد عن محيطها كوكب أو نجم إلا عندما تنتهي دورة وجوده في الكون، والأمم المتقدمة تدير رؤوس أموالها في دائرة متكاملة تبدأ برأس مال يتم استثماره في صناعة أو زراعة أو تجارة أو عقار ليدر عائدا يعاد تدويره في أنشطة مماثلة، وما ينطبق على الاستثمار فيما سبق ينطبق أيضا على الاستثمار في الثقافة والرياضة والفن وبقية فروع النشاط الإنساني، والعائد في هذا المضمار ربما يفوق عائد المجالات الأخرى وهكذا تتعاظم رؤوس الأموال وتتقدم الأمم لأن دوائر منظوماتها مكتملة ومنتظمة، بينما تفشل شعوب أخرى في إكمال الدوائر في مجتمعاتها حيث تسود ثقافة الدوائر المنقوصة المشوهة في كل المنظومات.

ومن المسلمات الهندسية أن أكبر مساحة يمكن أن يشكلها محيط ثابت هي الدائرة، لذا كانت لها الغلبة في استخدامات الحياة، بل وفي التشكيل الفني والمعماري والحياتي بدءا من أنابيب نقل السوائل والغازات حتى نقل الدم في جسم الإنسان، وقد انشغل الفكر البشري بمسألة الدائرة ومشتقاتها منذ فجر التاريخ وحازت على فكر الفلاسفة والمنظرين والمخترعين عبر العصور من أرشميدس إلى جاليليو وغيرهم وحتى اليوم.

وفي طقوس معظم العقائد الدينية بمختلف مذاهبها تشكل الدوائر جزءا مهما كالدوران أو التحلق (حلقات الذكر أو العلم) أو الطواف حول رمز مادي أو معنوي أداءً لشعيرة.

وقد أهدتنا الدائرة أحد أهم المنتجات أو المخترعات التي أفادت البشرية بتطبيقاتها المذهلة في كل مناحي الحياة، وهي العجلة. وأيضا أهدتنا الدائرة أو بالأحرى مجسمها ثلاثي الأبعاد أحد أهم الرياضات إن لم تكن أهمها وأوسعها انتشارا وأقواها شعبية في الكوكب كله، وهي الكرة.

وتدور دوائر الحياة وتظل تدور طالما تدور عجلة الزمن تلك التي يحاول البعض إيقافها وهم واهمون لأن دورانها حتمي، وسوف تدهس كل من يعترض مسارها، تلاشت حضارات وإمبراطوريات وولدت حضارات وستتلاشى وتفسح مكانا لغيرها، وهكذا تدور عجلة الزمن كما كانت تدور منذ الأزل وستبقى هكذا إلى الأبد دائرة.

رحلـة

السفر أو الترحال لأي سبب هو متعة مضنية لمن استطاع إليها سبيلا، وخصوصا لمن هم في مثل سني وموقعي الجغرافي، والمعاناة تبدأ من إجراءات طلب التأشيرة حيث يعتبر أمثالنا ذاهبين إلى الجنة فنحاسب حساب الملكين على كل ورقة ومستند باعتبارها مزورة وكاذبة إلى أن يثبت العكس، بالاضافة لنظام جباية مجحف ومكلف بكل المعايير فبينما لا يتكلف القادم إلينا سوى ٢٥ يورو رسم تاشيرة دخول في مطار الوصول تكلفت أنا ما يعادل عشرين ضعف هذا المبلغ ما بين رسوم التأشيرة ورسوم ترجمة ورسوم اعتماد أوراق وتفرعات أخرى كثيرة، ورغم أني ذاهب لزيارة ابني وهو مواطن أوروبي استغرقت الإجراءات تسعين يوما بالتمام والكمال للحصول على تأشيرة قصيرة (استغرقت زيارتنا شهرا) وبالمناسبة وبعد وصولك يتوجب عليك الذهاب إلى البلدية للتسجيل والحصول على ورقة لا تتحرك بدونها مع جواز السفر ويجب أن تسلمها يوم مغادرتك.

ولما حاولت قيادة سيارة ابني وكنت قد استخرجت رخصة دولية (كلفتني نصف ألف من الجنيهات) من نادي السيارات المصري هالني النظام المبهر على الطرق، ورغم أنني أقود السيارات منذ نصف قرن في مصرنا العزيزة إلا أنني اكتشفت أن القيادة هناك شيء مختلف تماما لم أتكيف مع معاييره الصارمة، وقد ينبهر القارئ عندما أقول أن القيادة في بلادنا ممتعة فهي مغامرة من النوع الذي يضفي إثارة وزخما للحياة، فبعد

كل مشوار تعود وكأنك ولدت من جديد، أما عن الدراجات وأنا أحدثكم من منطقة تشمل جنوب هولندا وشمال بلجيكا فتلك قصة تستحق التأمل من كل الوجوه: الوجه الاقتصادي والوجه الاجتماعي والوجه الصحي، وحتى الثقافي والبيئي فهم يعشقون الدراجات وأظنها لديهم موروثا تراثيا يبدأ من سن الثالثة حتى نهاية العمر، ويأسرك مشهد أم تركب الدراجة ويتبعها صغارها كل على دراجته المناسبة لسنه دون أدنى خشية؛ فالطرق مجهزة بحارات سير خاصة والدراجة وراكبها مجهزون بوسائل الأمان المروري بدءا من المعطف الفسفوري حتى الإضاءات الليلية.

وبمناسبة التكيف فقد غادرت مسكني في جنوب مصر، والحرارة تتجاوز الأربعين بدرجتين وهبطنا في بروكسل والحرارة خمسة عشر درجة، وتهطل الأمطار على مدار الساعة، وهذا الانقلاب المناخي يتطلب وقتا وجهدا لم يعد من السهل الحصول عليه. والهولنديون طوال القامة (ذكور وإناث) وينحسر شعر مقدمة رؤوس الرجال في سن مبكرة أما الإناث فشعورهن تحتاج إلى شاعر كي يصف جمالها. وكاتدرائيات فخمة وكنائس كثيرة بمعمار عصر النهضة، وأغلب مرتاديها من كبار السن وهي فقط تدق الأجراس والناس بعد ذلك أحرار، وفي هولندا لا شأن للدولة بالكنيسة على الإطلاق وفي الشمال حيث تسود البروتستانتية فالكنيسة الكاثوليكية التي يعجز أتباعها عن رعايتها تعرض للبيع أو الإيجار وبعضها تحول إلى مسارح ودور ملاهٍ، أما على الجانب الآخر من الحدود حيث القسم الفلامنكي من بلجيكا الكاثوليكية الرومية، فلا تزال الكنائس تحت رعاية الدولة.. كما تنتشر كنائس صغيرة تشبه الزوايا في بلادنا في قلب

الغابات وكان الغرض منها هداية وإرشاد الصيادين وجامعي الحطب. وفي هولندا، وبالتحديد في جنوبها (ايندهوفن) تأسست فيلبس في أواخر القرن قبل الماضي، وفي نفس المنطقة انبثق عنها العملاق الأول في العالم في تكنولوجيا ماكينات تصنيع أشباه الموصلات والطباعة ثلاثية الأبعاد للدوائر المتكاملة بتقنيات النانو تكنولوجي، وهي شركة قابضة أسهمها في أكبر أسواق المال في العالم، وعدا العقول والعمل الشاق لا توجد موارد من تلك التي تنبثق من تحت الأرض فلا بترول ولا غاز ولا معادن، فقط عمل وفكر ونظام يحترم القيم العليا وحقوق البشر وتوزيع عادل للثروة، والناس في الشوارع خليط أجناس وألوان معظمهم من المستعمرات السابقة ولم ألحظ أي تمايز أو كراهية أو عنصرية لأي مكون من مكونات هذه المجتمعات.

والمتاجر تعج بالبشر والعروض على السلع على مدار العام، ويوجد سلع لكل المستويات فبينما يمكن أن تشتري سريرا بما يعادل مائة ألف جنيها مصريا تستطيع أن تشتري سريرا بعشرة يوروهات من مخازن الأثاث المستغنى عنه بدون مقابل، فكل من لديه أثاث لم يستطع بيعه يسلمه لهذه المحلات بدون مقابل، بل ويدفع مقابل نقله، وبمناسبة الأشياء المستغنى عنها نعرج إلى نظام التخلص من المخلفات ونحن هنا في شمال بلجيكا أو القسم الفلمنكي منها وأتيحت لي فرصة زيارة لمحطة فرز وتصنيف المخلفات الصلبة، وهالني أني لم أر عاملا أو موظفا، ومن شدة نظافة وأناقة المكان حرصت على التقاط صور خلفيتها حاويات عملاقة مميزة بلون لكل صنف من البلاستيك والورق والزجاج، ولكل فرد حصة مجانية

من مخلفاته أما ما زاد فيدفع مقابل التخلص منه ويتولى برنامج كمبيوتر وميزان على باب المحطة كل تلك العملية بسهولة ويسر. والموسيقى والقراءة والطعام هم محاور حياة هذه الأقوام، ومازلنا في جنوب هولندا وشمال بلجيكا وهم ينتمون إلى عرق واحد الفلاندرز أو الفلمنكيين وينطقون لغة واحدة (النيرلاندية) وسبق وكانوا دولة واحدة حتى العام ١٨٣٠ وللآن تتداخل الحدود وتقسم إلى شوارع وقرى وأحيانا مبانٍ.

وأخيرا عدنا إلى الوطن ورغم ما لاقيناه من محبة وكرم وود وكنا وكأننا في بيتنا لكن دائما يظل العود أحمد.. هذا الطرح هو انطباع وليس تقرير فأدب الرحلات له أصوله ورواده العظام وإن كان قد تقلص بسبب الميديا وضمور المسافات الرقمية وثورة الاتصالات إلا أن المشاهدة واللمس والتذوق تظل هي الوسائل الحقيقية للتعرف والتعارف على ومع الناس والثقافات والأحوال.

شارع العُمَرية

الشائع كان بكسر العين وفتح الميم، لكن صحيحه كان بضم العين وفتح الميم أيضا، إذ أن التسمية كانت منسوبة لإحدى الطرق الصوفية الوافدة من بلاد المغرب العربي كمعظمها في مصر، والتي كان يسكن شيخها في الشارع وهو الشيخ سيد، وكمعظم الشوارع في مدن الصعيد الأدنى يمتد الشارع من الغرب إلى الشرق، وهو لا يتعدى الخمسين بيتا نصفهم على جانبه الشمالي، ومثلهم في المقابل، لكن أحيانا كان يطلق على الشارع اسم شارع الورشة لوجود ورشة خراطة في مواجهة اتجاهه الشرقي، أما واجهته الغربية فكان يقابلها المدرسة الأميرية أو مدرسة فاروق، وكان الشارع هو الثاني ضمن أربعة شوارع متوازية تنتهي عند طريق قديم لقطارات نقل القصب يسمى السكة الإضافية.

كان الشيخ سيد رجلا سبعينيا تقريبا، ومازلت أذكر مشهد انطلاق موكب احتفال الطريقة العمرية بالمولد النبوي، حيث يرتدي الشيخ سيد وشاحا أخضر، ويحيط به مريدوه وحاملو البيارق والأعلام الملونة ـ وأظننى رأيته ذات مرة يعتلي حصانا ـ وينشد الجميع الأذكار الموزونة على إيقاع الطبول والمزمار بما فيهم أطفال الشارع الذين يتزيلون الموكب بدءا من لحظة انطلاقه من أمام بيت الشيخ سيد مرورا بشوارع المدينة الرئيسية وحتى عودته إلى نفس المكان، ولم يترسب في ذهنى أنا الصغير وقتها أى حساسية من أطرب وأردد (بسم الله.. الله أكبر ذو الجلال والاكرام...)

وبقية الأهازيج الدينية مع الجموع وبقية أطفال الشارع.

مواكب أخرى كانت تمر بشارعنا، أحدهم كان يوم الأربعاء حيث تمر الذبائح المزمع بيع لحومها يوم الخميس: ثيران بقر وفحول جاموس مزينة بأكاليل الورود ليعرف الناس صاحب محل بيعها وينادى عليها (من ده بكرة بعشره قروش) وهو سعر رطل اللحم أيامها حيث لم يكن تم بعد تعيين نظام الوزن الحديث.

موكب آخر كان الأكثر أهمية بالنسبة لنا نحن الصغار وكان يمر عصر الجمعة، حيث يمر عمال سينما الجمهورية التي يملكها الحاج عبد الناصر في شارع بورسعيد حاملين الأفيش الضخم لفيلم الأسبوع الذي يبدأ عرضه يوم السبت، وأحيانا لفيلمين تصاحبهما فرقة من آلات النفخ الشعبية مع عرض بسيط للعبة من ألعاب السيرك في عرض مبهج.

كان شارع العمرية ـ ونذكركم أننا نتحدث في أواخر خمسينات القرن الماضي وبواكير الستينيات ـ نصفه تقريبا أو يزيد قليلا من الأقباط، وكان معظم سكانه ميسوري الأحوال عدا بعض الساكنين بالإيجار، ولم يكن البناء المسلح منتشرا فمعظم البيوت كان من طابقين والسقوف عالية من الخشب والحوائط.. إما من الحجر الجيرى أو من الطوب اللبن، والشارع الذي لا يزيد عرضه عن خمسة أمتار تقريبا بأرضيته الترابية كان يكنس كل يوم صباحا ويرش بالمياه بعد الظهر وتضاء أعمدة الانارة قبيل الغروب، وفي أمسيات الصيف تحلو جلسات النساء للسمر أمام البيوت بينما يلعب صغارهن على مقربة منهن.

وقد ولدت في هذا الشارع حيث كنا نملك بيتا كبيرا من طابقين باعه أبي في منتصف الخمسينات لظروف يطول شرحها، لكن صلتي بالشارع لم تنقطع حيث كنت دائم التردد على أسرة أصغر عماتي التي كانت تسكن الشارع، وكانت الأسماء في الشارع تتراوح بين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وبين جرجس وولسن وإسرائيل وتادرس، والأخير كان أكبر تاجر خمور في المدينة

وكانت (الست أم عمر) وهي زوجة الحاج كامل الأخ الاصغر للشيخ سيد بمثابة الأخت الكبرى لمعظم نساء الشارع ومنهن عمتي التي كانت دائمة المديح في (أم عمر) لطيبتها وكرمها ولم أر أبدا شجارا في هذا الشارع، ولم أر شبهة تعصب أو تمييز أو فرز أو عنصرية، كان خليطا ممتزجا متعايشا قابلا بالاختلاف كأسلوب حياة حتمي لا مفر منه وضرورة حياتية لا غنى عنها وأتذكر أن الفندق أو (اللوكاندة) الوحيدة في بلدتنا كانت ملكا لليونانية كاترينا وشقيقتها..

هذا ما جادت به الذاكرة عن صورة مر على آخر تفاصيلها ستون عاما أو يزيد لشارعنا الجميل، وأظنها صورة من بلدتنا، وأظنها صورة من الوطن كله في هذه الحقبة الجميلة التي نعيش على بقاياها حتى اليوم.

عن الحرية والتغيير.. لا تطفئوا الشمس

فات هؤلاء الذين تجمدوا عند القرن السادس أن الأفق لم تعد حدوده خط التماس مع الرمال فقد اتسع اتساعا هائلا بينما يغطون في نوم عميق داخل كهوف في البوادي، وبينما هم ههنا نائمون تسللت أفكار وأدوات وتقنيات الأجنبي الأعجمي الكافر الملحد وغزت غرف النوم وتلقفها الشباب النهم للمعرفة الحقيقية القابع خلف الشاشات الكريستالية، تلقفوها منتجات من التكنولوجيا والإبداع والابتكار المبهر، وهو منتوج التحرر والتجديد والحضارة والمدنية التي صوروها له على أنها رجس ومعصية وزندقة وخروج عن الملة وعن طاعة ولي الأمر، لكن هؤلاء الشباب اكتشفوا أن كل هذه الترهات التي لا يمل المنظرون الكبار من ترديدها وبثها ليل نهار قسرا في عقولهم، اكتشفوا أنها مكلمة أزلية فاسدة، مكلمة جربوها سلفا وجربوا نتائجها الكارثية على كل قضايا هذه الشعوب المنكوبة، مكلمة عنعنات محفوظة ومكررة وممجوجة، مكلمة يستدعون فيها نفس الأصوات الزاعقة وكأن البشر مازالوا في الصحاري، ويستدعون نفس الأزياء وكأن البشر مازالوا يركبون الإبل، إلا أن أجيالا شبت على غير هواهم، وعلى غير ثقافتهم وعلى غير نمطهم في الحياة، أجيالا اخترقت عوالم الحداثة والتقنية، بينما الكبار منشغلون بسيرة زواج الجن بالإنسية والعلاج بالحجامة وبول البعير

بينما هم في هذا المستنقع الآسن حسمت هذه الأجيال أمرها

حسمت الصراع النفسي الهائل الذي عانته بسبب هؤلاء الذين ضحوا في عقولهم الغضة أكاذيب مجتمعات التعالي والتفوق والتمايز العرقي والديني والمذهبي، حسموه لما شبوا عن الطوق ورأوا بأعينهم حجم الكذبة الـهائلة التي تعرضوا لها لقرون وعقدوا المقارنة التاريخية الحاسمة واكتشفوا الحقـيقة المرة، فهذه مجتمعات فاسدة يتوارثها حكام فاسدون، مجتمعات متخـلفة منقسمة لا تنتج حتى ما تأكله، حتى الثروات التي حصل عليها بعضهم بتصاريف القدر لم تستطع إلا أن تزيد الهوة اتساعا بين الغنى الفاحش والحياة تحت خط العدم، مجتمعات راكدة كمياه البرك المغلقة لا ابتكار ولا إبداع ولا فنون ولا ثقافة..

ويتساءل الناس ما هو القاسم المشترك بين ما حدث ويحدث وما سيحدث في كل المنطقة وآخرها السودان؟.. والجواب هو أن القاسم المشترك بين كل هذه الشعوب أن كلها مستعبدة تكلست مفاصلها وأصابها الجمود والتحجر وانسدت فيها شرايين التغيير، التغيير الذي هو قرين الحرية وتوأمها الملتصق وهو سنة حياة سنها الخالق دورة لكل الكائنات والمجتمعات، دورة حياة تبدأ وتنتهي في ديناميكية متناغمة، سنة تغيير أزلية تطال الجميع، شخوصا وآراء وأحداثا ومواقف ونظريات وتحليلات وعقائد ودولا وأحلافا، وحتى النبات والحيوان والجماد، كلها خاضعة لسنة الكون وخالقه في الغداة والرواح، أي التغيير والتحول وبالتبعية التطور والتنوع المثري، أما أن يجثم على صدرك حاكم لنصف قرن فذاك شر البلية التي ابتليت بها هذه الشعوب المغلوبة، فتارة يتوارثوهم بتأويلات ترتكن إلى العقيدة وتارة بتأويلات ترتكن إلى التاريخ، وأخرى إلى

الجغرافيا..

إن هؤلاء الواقفين ضد دوران عجلة الزمن لا يتعظون وسوف تدهسهم تروسها التي تتسارع كل يوم عاجلا أو آجلا، فهؤلاء الشباب قبضوا على لحظة الحقيقة التي ظهرت في الأفق كومضة أشعلها منذ عقد من الزمن ذاك الشاب التونسي البائس، عندما جعل من جسده شعلة كشعلة أولمب، وهي تطوف الآن بكل المناطق الموبوءة بالظلم والقهر والعنصرية، تطوف لتنير سبيل هؤلاء الشباب إلى طريق العتق من القهر والعبودية، وبينما يتشبث الحكام بكراسيهم التي كان بعضهم قد اقترب من إكمال خمسة عقود قابعا فوقها من دون حراك ويطمع في المزيد، وهو زمن نهضت فيه أمم من العدم، وأصبحت تحتل مكانة بارزة، نهضت الصين ونهضت اليابان ونهضت كوريا ونهضت ماليزيا ونهضت سنغافورة واتحدت أوروبا وشعوب كثيرة في كل بقاع الأرض انفتحت على الدنيا وتخلصت من أوهام وهواجس الغزو والتبشير والكائنات الغريبة التي تحوم على الأطراف ليل نهار، أوهام محو الثقافة والعقيدة..

وتوقف الزمن بهؤلاء ارتكازا على شماعة المؤامرة، ونعود إلى الشاب البوزيدي الذي أوقد الشعلة وعلى ضوئها استشرف أقرانه في كل المنطقة صورة المستقبل وهبوا في تسونامي رهيب مكتسحين كل رموز وأصنام الماضي، لكن قوى الشر المتربصة استشعرت الخطر القادم وهبوا ليطفئوا شمس الحرية التي أشرقت بعد احتجاب طويل، فنجاح الثورة في السودان، ونكرر السودان بالذات، سيكون كارثة على مموليهم ورعاتهم؛ فالسودان كان الباب الملوكى لنشر التطرف والتعصب والإرهاب في كل شرق ووسط

إفريقيا بالطبع مع الفرع الرئيس في مصر، كما أن التغيير والحرية وهما صنوان سيدفعان للتفكير وهو أمر جد خطير أن تعود العقول لاستعمال الهبة الإلهية التي تميز الإنسان عن الحيوان وهي التفكير، التفكير الذي لا شك سيكشف تلك الغمامة السميكة التي غشت العيون والعقول الغمامة التي تمنع الإنسان من الخروج عن المسار المحدد له سلفا، يساق مسيرا من باب رحم أمه حتى باب القبر، باعتباره كائنا ناقص الأهلية لا يستطيع أن يميز بين الخير والشر، التفكير الذي فتح عيون الشباب وهبوا رافعين راية إحياء قيم الرابطة الإنسانية النبيلة التي افتقدوها في خضم بحر هائج من الشعارات والتأويلات الطائفية والعنصرية البغيضة المسيسة لمصلحة حكام طغاة، هب الشباب رافعين شعارات التآخي والتعاون والمحبة والحرية والمساواة لتصحيح الصورة المشوهة لهذه البقعة الطاهرة من الكوكب التي باتت مزرعة تفريخ للإرهابيين الذين يدبرون لتدمير الحضارة الإنسانية، ومزرعة للفتاوى العنصرية التي استعدت علينا كل الكوكب، ولن يهدأ بال أنظمة القهر باسم الدين حتى يطفئوا شمس هذه الثورة الوليدة بسكب براميل الفتاوى لإشعال الفتن النائمة، ولإطفاء الهمم التي استيقظت، والآمال التي ابتعثت بعد موات ترى هل يستطيعون أن يطفئوا الشمس؟.. أم ترى سيحرقهم لهيبها المتعاظم الذي بات يحاصرهم من كل اتجاه

في انتظار الموت

لأسباب متعددة أحيانا تغيم مشاهد الحياة على الإنسان، تضطرب الأفكار وتزيغ الرؤى، يستوي في ذلك المهموم بكفاف عيشه اليومي أو المهموم بما يعتقد أنها قضايا أكبر من ذلك بكثير، ويجد الإثنان صعوبة بالغة في استجلاء وجه الحقيقة في المناخ الضبابي المحيط، فذاك أصبح عسيرا فالحقيقة تلونت بوجوه كثيرة وكنيت بأسماء متعددة، وما أن يعتقد الإنسان أنه عثر على بغيته وقبض عليها وما أن يهب بالصياح: "وجدتها" يبرز النقيض في لحظة ويكتشف الإنسان أنه قبض الريح، ويعود حائرا يفتش عن حقيقة باقية بوجه واحد، ولولا حقائق مطلقة كشروق الشمس وغروبها وشروق الحياة وغروبها لاعتقد الإنسان أن الحقائق قد اختفت من الوجود.

وعلى ذكر الحياة سوف نتوقف في هذا الطرح (المقبض) عند نقيضها أي عند الموت، لكننا سنتوقف عند باب القبر، حيث لا نرغب في الدخول، نقصد الدخول في سجالات الاختلاف بين العقائد والثقافات حول ما هو التالي بعد لحظة المغادرة، سنقف عند المتفق عليه بين الجميع، المؤمنين وغير المؤمنين، وهو لحظة المغادرة: مغادرة الحياة مغادرة الروح للجسد وتحول هذا الكيان الذي كان يملأ الدنيا حركة وتأثيرا إلى جثة هامدة، ويبدأ الجميع وعلى عجل (ومن باب إكرامه) إعداد حفرة لإلقائه فيها ويهال عليه التراب، وفي ثقافات مغايرة صندوق (محكم الغلق) موشى

بالزخارف ويدفن أيضا في التراب، وربما يكرم هذا أو ذاك (طبقا لإمكاناته) بشاهد رخامي عليه الاسم وتاريخ المغادرة، أو مجرد حجر وغرسة صبار كمعلم يضيع مع أول هبة ريح، أو ربما يحرق الجثمان ويختزل في قارورة صغيرة بها بعض الرماد وتوضع على رف معلق بها بطاقة صغيرة كتلك المعلقة في رقاب مومياوات المتاحف، أو تنثر على سطح مياه النهر (المقدس)..

نعم هو سيد حقائق الحياة بلا منازع، الحقيقة الوحيدة المتفق عليها بين كل البشر من كل الأجناس، لا يملكون ولا يستطيعون الاختلاف عليها كبقية (الحقائق الأخرى)، فهو الحقيقة الوحيدة على الإطلاق التي لها وجه واحد، واسم واحد حقيقة طالت كل البشر السابقين، أما الباقون فهم في انتظارها، يتصنعون تجاهلها، كل يتشاغل بشيء ما يسرد حبات مسبحة أو يلعب النرد أو يجمع المال أو يعب من متع الحياة، والجميع يعرفون أنها قادمة، وتبدأ المقدمات: تشيب الرؤوس، تتهدل جلود الرقاب، ترتخي الجفون، يخفت بريق العيون، وتهن الأصوات وتظهر خريطة الزمن على الوجوه أخاديد عميقة، وتتكاسل القلوب والأكباد والكلى والعيون، أو لا شيء من ذلك كله فقد يأتي كلص يخطف نسمة الحياة من الجسد الغض في عارض ينسب للقدر أو لأسباب أخرى، وتتعدد الأسباب والموت واحد، نعم هو سيد حقائق الحياة بلا منازع، الحقيقة التي يبدو مظهرها المؤكد واضحا للجميع، جثة هامدة منطرحة أرضا ومعها مظاهر اتعاظ وتأثر (مؤقتين) وبعض الحزن من كل المحيطين، حيث لم تفلح كل طرق المقاومة في صد زحف اللحظة لحظة خروج (السر)، ولم تفلح الصبغات ولا

(الباروكات) ولا شد الجلود ولا شفط الدهون ولا الأدوية ولا الأعشاب، لم يفلح كل ذلك في (رجوع الشيخ إلى صباه) أو وقف زحف اللحظة أو حتى إبطاء سرعتها ولو قليلا حتى يتم نهو بعض المهام وغالبا لاتنتهي.

وغيبيات كثيرة تفرزها كل الثقافات تحاول استكشاف خفايا تلك اللحظة الفارقة بين الحياة والموت، لكنها لا تعدو كونها رغبة الإنسان الملحة في الاستكشاف، استكشاف المجهول المطلق المغلق على عقله المحدود، وبدءا مما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر وحتى الحور العين مرورا بالثعبان الأقرع، تخرج اجتهادات من كل الثقافات تتخيل ما بعد اللحظة.. لحظة عبور البرازخ والسراديب لحظة الحقيقة الناصعة التي لا تقبل التشكيك.

نعم.. الموت هو القضية الوحيدة المحسومة والتي لا تزال صامدة على وجه الأرض، تسري أحكامها النهائية على الجميع، فكل الحقائق شوهت أو تم لي أعناقها أو تطويعها للمآرب أو تزويرها، في عالم أصبح كمرجل يغلي بالأكاذيب وتحته وقود جاهز سريع الاشتعال، صحف صفراء وشبكة عنكبوتية وقنوات يحتلها كذبة منافقون اعتلوا منابرها ليغسلوا أدمغة البسطاء، وبدلا من أن يعرضوه كحقيقة عرضوه كبضاعة تسوق بطرق مدلسة هامش ربحها يتعاظم كل يوم في جيوب الموردين، حقيقة يلجأ إليها البؤساء التعساء القانطين المطاردين بموجات الحزن والكآبة والتنهد، في عالم مملوء بالظلم والعبودية والفرز والتمييز والقهر في كل بقاعه، عالم تحالفت فيه الرؤوس الكبيرة مع رؤوس الأموال ورؤوس الأفاعي، ليظل هذا الكوكب في انتظار لعنة أو طوفان تعيد منظومة الأسماء الحقيقية للأشياء

الحقيقية.

ولولاه ما احتفى الإنسان بالحياة، الإنسان العاقل الذي يدرك أنها قصيرة، وعليه أن ينجز شيئا قبل فوات الأوان، شيئا مفيدا لنفسه وإن أمكن لغيره وإن أمكن للبشرية كلها.

وعندما تعارفنا أول مرة ذات صبح حزين وحمل الرجال أمي إلى الصحراء اقترن اسمه بشعور يتم ظل كامنا في روحي يطفح كلما رأيت مراسمه في أى مكان. والتقيته كثيرا: خطف أبي وخطف صديقي وخطف أعزة كثيرين، وبت في الحالة التي يتوحد فيها كل سكان هذا الكوكب، الحالة الوحيدة على الإطلاق التي لم يستثنى منها زرع بشر، وهي أننا جميعا في انتظاره.. في انتظار الموت.

قائمة التعساء

في بلادي وما حولها سيناريوهان وحيدان معتمدان في التعليق على نتائج استطلاعات الرأي أو التقارير التي تجريها أو تصدرها الجهات المتخصصة في هذا المضمار، وهذان السيناريوهان لا يخرجان عن أحد أمرين، الأول في حال ما اذا كانت هذه النتائج متوافقة مع ومؤيدة لسياسات النظم الحاكمة أو (اللوبي) المسيطر على الشارع، والثاني في حال ما اذا كانت هذه النتائج تخالف ذلك وتتعارض مع سياسات وتوجهات هذه النظم.

في الحالة الأولى يتم التهليل لهذه النتائج والاستشهاد بمصداقيتها ومصداقية الجهات التي نفذتها، أما في الحالة الثانية فيبدأ التشكيك في تلك النتائج والهجوم على منظميها واتهامهم بالعمالة والمؤامرة والكيد للنظام ومعاونيه وسياساته ومحاولة طمس إنجازاته المتعددة، وما ينطبق على استطلاعات الرأي ينطبق على كل ما يصدر عن أية جهة أو منظمة دولية أو إقليمية أو منظمة مجتمع مدني.. الخ، ويثير الضحك أن هذه النظم قد تمدح وتذم جهة واحدة خلال فترة وجيزة، لكن أحيانا يحدث سيناريو مخالف للحالتين السابقتين وهو سيناريو الصمت المطبق، حيث يصيب البَكَم جميع الأفواه ويصيب الصمم جميع الآذان.

وما نحن بصدد الحديث عنه هو التقرير الأخير الصادر عن أحد الجهات المتخصصة في هذا المجال ونشر مؤخرا، والتقرير يضع مصر في ذيل قائمة من مائة وخمس وخمسين دولة مرتبين من الأسعد فالأقل سعادة ثم

التعيس فالأتعس، وفي المؤخرة يقبع من هم أكثر تعاسة، وبالطبع وكعادتها في مثل هذه الفعاليات تتربع على عرش القائمة دول إسكندينافيا الأربع، يليهم دول مثل هولندا وإسرائيل، بينما يجاورنا في ذيل القائمة (الأشقاء) في موريتانيا وبنجلاديش والصومال وتشاد واليمن وبقية القائمة التي لا أظن أنها تحتاج أي قدر من الذكاء لاستكمالها، وبرغم أنني شخصيا أحيانا أتحفظ على نتائج بعض هذه التقارير لأسباب كثيرة ليس هذا مجال سردها..

لكن المثير للشجن في نتائج هذا الاستطلاع أنها تتوافق بشدة مع الظواهر البادية بوضوح على الساحة في الشارع المصري، فالناس تغيروا تغييرا عميقا طال حتى قسمات وجوههم، حيث اختفت البسمة من على الوجوه، وشعور الرضا الذي كان مطبوعا عليها استبدل بتجهمات غريبة هي خليط من الغضب والسخط والحزن والبؤس والإحباط والحقد والتنمر، وأؤكد من تجربتي في الحياة أن الفقر لا دخل له على الإطلاق في هذه الحالة حيث أزعم أنني رأيت الفقر الحقيقي للمصريين، الفقر المدقع في الستينات، الفقر الذي لم تختلط به التعاسة ولم يتحول أبدا إلى بؤس، ورأيت معه شعور رضا غريب في النفوس انطبع على الوجوه سماحة وابتسام وانطبع على القلوب سلاما ومودة، نعم كانت هناك جرائم فردية حيث يمكن أن تهوي النفس البشرية في لحظة إلى الهاوية، لكن بهذه البشاعة الموجودة على الساحة الآن أبدا لم تكن، فلم تكن هناك جرائم الحصد الجماعي لأرواح البشر تحت مسميات الثأر أو الانتقام أو الطائفية، ولم يكن هناك جرائم التحرش أو اغتصاب النساء رغم أنهن لم يكنّ محجبات

أو منتقبات، ناهيك عن اغتصاب الاطفال وزنا المحارم، ولم يكن هناك جرائم الاستئساد وقهر الضعفاء، وقائمة مفزعة من نوعيات مقززة من الجرائم البشعة.

والمشكلة في استطلاع التعساء هذا ليست في مضمونه المأساوي بل في صدامه مع نتيجة استطلاع سابق عليه بفترة وجيزة عن نفس الجهة يقول بأن المصريين يتبوءون عرش نفس هذه القائمة لكن تلك المرة كانت ليس باعتبارهم أكثر سعادة ولكن باعتبارهم أكثر (تدينا)، وهذه الكلمة بين القوسين على قلة حروفها حولت حال المصريين (كل المصريين) من حال إلى حال في كل مناحي الحياة، اجتماع واقتصاد وسياسة وثقافة ومن ثم يجيئ استطلاع التعاسة ضاربا استطلاع التدين في مقتل، ويتركنا أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن ننجر إلى خطأ التعميم ونربط ربطا ساذجا بين التدين والتعاسة، أو نعود إلى نظرية المؤمرة ونكيل السباب لهذه الجهات التي تجري مثل هذه الاستطلاعات، لكن يقابلنا إشكالية التناقض الصارخ في السلوك حيث سبق وهللنا لها، لكن ربما يكون هناك طريق ثالث لفض هذا الصدام الذي لا شك له آثاره على البسطاء المحبطين المتسائلين: أليس من المنطقي أن يكون المتدين أكثر سعادة؟ أو على الأقل سعيد؟ أما أن يكون الأتعس فهناك خطأ ما علينا أن نبحث عنه، وإذا وجدناه علينا أن نعترف بوقوعه ثم نبحث أين ومتى وكيف وقع.

وبالرجوع للواقع المعاش لا شك أن (مظاهر) التدين أغرقت الشارع المصرى بدءا من أسماء استدعيناها من القرون الوسطى وحتى أزياء استدعيناها من عوالم لا تزال تعيش في نفس الحقبة مرورا بدور العبادة

والفضائيات واللحى ومكبرات الصوت التي اجتاحت في طريقها كل فرصة للتفكير في أي أمور أخرى، وبالتالي أصبحت كل القضايا هامشية تحتمل التأجيل وربما الإلغاء، بما فيها قضايا مصير حياة الإنسان في المأكل والمشرب، ناهيك عن أمور الكماليات والرفاهية (فقد سخر الله لهذه الامور آخرون لتدبيرها) واستراحت الضمائر إلا قليلا وذلك حتى يتم تديين هيكل الدولة الخارجى وتكتمل الصورة التي يسعى الجميع في اتجاهها.

يتبقى لنا الشق المتعلق بالتعاسة، وهذا التناسب العكسي المثير للتساؤلات: لماذا يشعر هذا الإنسان (المتدين) بكل هذا القدر من التعاسة؟ ولماذا ثلاثة أرباع الكون أسعد منه؟ بما فيها أمم لا تزال تعبد الأوثان أو لا تعبد شيئا بالمرة، وأسئلة كثيرة ستتكاثر بالانقسام ولا نملك بل ولا نجرؤ على الإجابة على كثير منها، عدا سؤالين الأول هو: هل المصريين أكثر شعوب العالم تدينا؟ الإجابة نعم تقول ذلك كل الظواهر والسؤال الثاني: هل المصريون أكثر شعوب العالم تعاسة؟ الإجابة نعم نعم تقول ذلك كل الظواهر ويتبقى السؤال المر السؤال الذي لا يستطيع أحد أن يقترب من إجابته فإذا كان السؤال مرا فإجابته علقم والسؤال هو: هل يمكن أن يكون الإنسان أكثر تدينا وفي نفس الوقت أكثر تعاسة؟ وفي هذه الحالة سيبرز بالضرورة سؤال أكثر مرارة عن ماهية ونوع الكائن البشري نتاج هذا المزيج؟

معارك تفسير المقدس

معارك طاحنة ابتدعها المدلسون لجعل البشر أسرى مسبيين في سجون كبيرة، سجون بلا قضبان ولا جدران، لكنها كانتونات حصينة لا يمكن الهروب منها؛ فالقائمين على حراستها أناس سوغ لهم خيالهم المريض أن العقائد يمكن تفسيرها بالعقائد، وأن ما ورد في كتب مقدسة عند أصحابها يمكن تفسيره بما ورد في كتب مقدسة عند آخرين، حراس كافرون بمبدأ التساوي الإنساني ودائما هم مشغولون بابتداع وتصدير أوهام التمايز الكاذب لبشر على بشر: وهم التمايز الديني والمذهبي والعرقي لمجتمعات يحتلها الجهل والفقر والمرض، ويتقاتل البشر لينسوا حاضرهم المتردي ومستقبلهم المجهول المشحون بالتعصب والانقسام والتخلف، كما وأن معارك تفسير المقدس بالمقدس أصبحت معارك يومية دامية أشلاء قتلاها عرضا يوميا على كل الميديا في الجهات الأربع

وبالطبع يزداد عمق الهوة واتساعها كل يوم بفعل فاعل خبيث يتجه بقوة نحو هدف أكثر خبثا وهو الوصول إلى نقطة النهاية وهو استحالة العيش المشترك أو استحالة (العشرة) بين أعراق وأديان ومذاهب عاشت قرون طويلة منسجمة، ولم يكن اختلاف العقيدة أو المذهب أو العرق يشكل كل هذا العمق السحيق وهذا الاتساع الهائل لهذه الهوة القاتلة، والنتيجة هي صراع الكانتونات المتفجر الآن، ولعل الصورة في العراق تنطق بحجم المأساة؛ فبعد خمسة عشر قرنا من التعايش بين أعراق وأديان

ومذاهب مختلفة كل الاختلاف: عرب وفرس وكرد وعبرانيون وأشور وكلدان ومندائيون وأرمن وشراكسة، بعد كل هذه القرون من التعايش السلمي انفجرت أرض اللبن والعسل وتم تدشين وتكريس مظاهر الانفصام بين الأعراق في هذه المنطقة بدءا من الأسماء وحتى الأزياء مرورا بمفردات التعامل اليومي بين الناس..

وبالطبع هم يعلمون تمام العلم أنه – أي الانفصام – هو المرحلة التمهيدية اللازمة لبلوغ الهدف السامي أو نقطة النهاية أو الحل الحتمي، وهو الانفصال والتقسيم، لأن الهوة تعمقت واتسعت ولم يعد في الإمكان جسرها، وقد وصلت مجتمعات إلى نقطة النهاية وبلغت الهدف المنشود، بلغته باقتدار، ورأيناه رأي العين، رأينا الحل (الحتمي) في السودان حيث نحرت الذبائح في شوارع الخرطوم وأم درمان ابتهاجا (بتوحيد القبلة)، ورأيناه في الصومال مثال صارخ مثير للشفقة والسخرية ورأيناه في فلسطين وماتت بسببه قضية شعب، وجاري ترتيب سيناريوهاته (الحتمية) في العراق وفي مصر وفي نيجيريا وفي مالي وساحل العاج وفي سوريا وليبيا واليمن، وغيرهم قادمون على نفس الدرب، ويبدأ فصل من المسرحية الهزلية الكاذبة الممجوجة بادعاء مؤامرات الغرب (الصليبي) على (العرب والمسلمين)، والحقيقة أنه نفس الناتج الحتمي لنفس المعطيات، أي التمويل السخي المشبوه بهدف بث الفرقة والانقسام والفرز بين الأعراق، فكيف لنفس المعطيات أن تخرج ناتجا مغايرا؟ فعلى سبيل المثال لا الحصر هل كان يمكن للسودانيين أن يعيشوا معا متحدين مندمجين في ظل تمايز عرقي واستعلاء ديني وفرز عنصري وقهر ثقافي، والإجابة بالطبع لا وألف لا.

هذا هو الناتج الحتمى لمعارك تفسير المقدس بالمقدس حيث لا يستطيع أحد أن ينكر واقع قائم وهو الفارق الهائل بين عقيدتين ليس في الهوامش فقط لكن في المتون وهو صلب العقائد بدءا من طبيعة المسيح وحتى تعدد الزوجات مرورا بشعر المرأة ولحم الخنزير بالإضافة للفوبيا التي تصنعها الميديا الخبيثة عن رموز وتعابير مثل الكنيسة والصليب والتثليث والتنصير والتبشير وغيره، حيث يتم استغلال هذه المفردات بذكاء وخبث شديدين في تعميق وتوسيع الهوة التي هي عميقة ومتسعة أصلا وقد أصبحت بحرا من الكراهية والتعصب، حيث يتم دائما التعمية والتمويه على مبدأ الاختلاف ونفيه وكأنه خطيئة لا يجب أن يوصم بها أحد، مع أنه كان السمة السائدة لعصور نهضة زالت مع زوال فكر التنوير والقبول غير المشروط للآخر، حيث عاش الناس أعراق وأديان وثقافات ومذاهب عاشوا تحت المظلة الأم السابقة على كل التفرعات اللاحقة وهي مظلة الإنسانية، حيث لم تكن ثقافة تفسير المقدس بالمقدس مستشرية.

ومع انحدار وانحسار مبادئ سامية لفلاسفة ومفكرين وفقهاء عظام قدامى ومحدثين كابن رشد وابن عربي ومُحَمَّد عبده والسنهورى وطه حسين وفرج فودة والبوطي والجابري وابن أركون، وغيرهم كثيرون، نقول انحسرت دعوات هؤلاء المجددين الذين آمنوا بحتمية الاختلاف بين البشر دينا ولونا وعرقا لأنها مشيئة الخالق، ووصلنا إلى محطات التخلف والانقسام والإظلام وفقه البادية، حيث تسود اليوم مبادئ ابن تيمية وأبو الأعلى وابن عبد الوهاب، ومعهم المتفيقهون الجدد الذين دمروا مستقبل شعوب هذه المنطقة، وما صعود أسهم الأصوليات اليمينية في أوروبا إلا رد الفعل

المتوقع والحتمي على الجانب الآخر بعد فشل كل المحاولات اليائسة البائسة المتخبطة لما يسمى بالحوار أو التقريب أو التعايش بين الأديان أو المذهب، وكلها فشلت فشلا ذريعا لأن الهدف غائم والوسيلة ملتوية، فالعقائد هي الإيقان بأمور وجدانية لا ترى ومستقرها القلوب لذا فإن محاولات مواءمتها أو مقاربتها أو تطويعها هو هزل، لكنه هزل خبيث يهدف لتحويل الهوة إلى هاوية، وكان الأجدر أن يتم التركيز على ترسيخ مبدأ الاختلاف الحتمي المشروع حيث يجب أن يعيش الناس مختلفين، مختلفون في العقائد شركاء في الوطن، مختلفون في اللون شركاء في الإنسانية، مختلفون في المذهب شركاء في المستقبل ، مختلفون في هذا وذاك وتلك شركاء في هذا الكوكب الذي استخلفهم الخالق في إعماره.

ومع أن الجميع يدعون الاعتقاد في وجود واحد لا شريك له (مالك ليوم الدين) أي اليوم الذي تصدر فيه الأحكام الحقة النهائية من القاضي العادل الأوحد، فلماذا إذن يغتصب المتطرفون اختصاصه ويتعجلون إصدار أحكام الكفر والشرك على الآخرين المختلفين؟.. مستخرجين نصوص من سياقها ومدعين التفويض الإلهي والوكالة الإلهية، والحقيقة أنها وكالة مزورة فهم وكلاء لآخرين يضخون أموالا بوفرة لهذا الغرض وهم ـ أي الممولين ـ في انتظار العائد المجزي وهو الحفاظ على أنظمة قمعية لا تستطيع الاستمرار إلا في بيئة بؤس وجهل وتعصب وعنف وانفصام وانقسام وصراع، وتلك بيئة لا تنمو إلا بثقافة تفسير المقدس بالمقدس، بيئة رعايا حريتهم وأرزاقهم هبة من ولي الأمر الذي لا يجوز الخروج عليه، والويل كل الويل لمن يفكرون في ذلك فسياط الفتاوى جاهزة لتلهب ظهورهم.

ولأن الأشياء يجب أن تسمى بمسمياتها الحقيقية منعا للتغرير والتدليس فالقتل في سبيل الله هو جريمة في حق الإنسانية وحوارات الأديان هي جريمة في حق الضمير البشري والغريب أن هذه الحوارات لا تعقد أبدا في هذه المنطقة بل في منتجعات أوروبا والسبب مفهوم للقاصي والداني.

والذين يعتقدون بحلول توفيقية بين العقائد هم واهمون فذلك لم يحدث على مر التاريخ ولا نعتقد أنه يوجد حلول وسط يمكن ابتداعها لجسر هذه الهوة لكن يمكن إقامة معابر عليها، وذلك يتطلب مؤمنين عن قناعة بمبدأ الاختلاف، مؤمنون بحتمية العيش المشترك في مجتمع متعدد الأعراق والأديان والمذاهب والثقافات، وهو ما نراه في كل المجتمعات الناهضة المتوحدة التي تحترم حرية وكرامة واختيارات كل إنسان، أما البديل فهو ما نراه في المجتمعات المحيطة من فوضى وتشرذم وعنصرية وتمييز وقهر وفقر وقتل وحرمان..

إن كل صاحب ضمير ولو نصف حي يجب أن يخجل مما يحدث على هذا الكوكب إن هذه الدماء وهذه الأرواح وهؤلاء المشردين الجوعى العراة في المخيمات هم سبة في جبين الإنسانية كلها لأن حروب تفسير المقدس بالمقدس أصبحت مصدر يرتزق منها هؤلاء المفسرون الذين أصبحوا أمراء حروب يأمروا بشر ليفجروا أنفسهم في بشر دفاعا عن مقدس أزاحوا عنه هالة القداسة وحوطوه بهالة من الدماء.

من عبد الناصر إلى نوكيا.. دراماتيكا الانهيار

حضارات وثقافات وكيانات ومشروعات وأنظمة سياسية واقتصادية وفي مختلف مجالات النشاط الإنساني كانت ملء السمع والبصر وشاشات أسواق المال، وأبهرت العالم بصعودها المذهل، وفجأة حدث ما لم يكن في الحسبان، انهارت هذه الصروح في مشاهد دراماتيكية عجز مراقبوها وأتباعها وحتى أعداؤها عن تفسيرها، وبكى رئيس نوكيا وانتحر هتلر وبكى عبد الناصر وتفكك الاتحاد السوفييتي، وكثيرون ذرفوا دموعا غزيرة لكنها كانت بكائيات على لبن مسكوب، وكان المشترك المأساوي الذي عجل بنهايات هذه الكيانات متعدد، وبينما تنشغل جامعة هارفارد ببحث الأسباب التقنية والإدارية لانهيار نوكيا.. سنجتهد نحن في هذا الطرح ببحث انهيار كيانات أخرى لا تمت بصلة للهواتف النقالة لكنها نالت نفس المصير المحير، وسندهش عندما نستخلص بعض أسباب انهيارها، ونجد أن عوامل كثيرة مشتركة ساهمت في مثل هذه نهايات، فماذا حدث لتسقط نوكيا العريقة هذا السقوط المدوي، وماذا حدث للرايخ الثالث لينال هذه الهزيمة المهينة، وماذا حدث لمشروع القومية العربية، وماذا حدث لمشروع حكم البروليتاريا الاشتراكي العظيم و.. و..

وإن كنا نتحدث عن بعض ما رأيناه رأي العين وعاصرناه، لكن هناك في التاريخ نماذج طبق الأصل انهارت دون ما سبب مقنع أو واضح، والنموذجان في عنوان الطرح لمستهم وعايشتهم وانفعلت بهم، هاتفت بنوكيا ولا زلت وهتفت لعبد الناصر ورغم كل ما حدث ما زالت، انبهرت

بنجاح نوكيا التقني وانبهرت أكثر بمشروع عبد الناصر القومي، وبرغم الفارق الهائل بين هذه المشاريع في الأهداف والوسائل إلا أن عوامل انهيارها المشتركة متعددة مع بعض الفوارق غير الجوهرية.

تقول كلية الإدارة بجامعة هارفارد أن الإيغال في الإخلاص لهدف بغرض الوصول للقمة بأقصى سرعة ممكنة يجعل الانتباه للأحداث الجانبية غير متابع أو غير متاح أو غير مهم ـ من وجهة نظر المسئولين ـ وبالتالي تحدث تغيرات تبدو في البداية غير مؤثرة وطفيفة، ثم تتراكم إلى أن يأتي الوقت الذي يصبح فيه التراجع وتصحيح المسار غير متاح لفوات الأوان، هذا مضمون بعض ما تقوله هارفارد، ونجتهد ونضيف من عندياتنا أنه في غمرة نشوة النجاح والصعود المبهر لا أحد يهتم بنمو المنافسين (والأعداء) فقد نمت سامسونج وآبل وتغذت على أخطاء نوكيا وبدأوا من حيث انتهت، وفي غمرة الفرح الطاغي بنجاحات مرحلية نسي عبد الناصر أن إسرائيل لم تعد معسكر استقبال مهاجرين، وأن حكام محيطه العربي باتوا يعتبرونه خطرا محدقا على كراسيهم، وأن بريطانيا العظمى تبيت له ثأرا بضربة قاضية، ونضيف أيضا أن دورة الحياة الحتمية لا تسمح باللا نهاية لشيء أو لشخص أو لكيان أو لحضارة أو لنظام، حيث يجب أن يتوقف كل شيء في الكون عند لحظة عند حد عند فاصل فقد اكتمل ووصل إلى المرحلة الحتمية الحاكمة للتاريخ وصل إلى الشيخوخة ويجب أن يسقط، لتبدأ دورة حياة جديدة بمعطيات جديدة بشخوص جدد لزمن جديد، دورات صعود وهبوط متتالية لحضارات وكيانات، وحتى ديانات لتستمر جدة الحياة، هذا إن جاز هذا الاجتهاد الذي قد يعتبره البعض تفسيرا دينيا للأحداث، وهو ليس كذلك لأنه مطبق منذ فجر التاريخ قبل الأديان فقد

سقط الفراعنة كمشروع حضاري ولا يزال التاريخ عاجز عن تفسير إعجازهم العلمي والتقني، وسقط العثمانيون كمشروع ديني سقوطا مدويا، وسقط هتلر سقوطا مهينا لم يكن يتوقعه ألد أعدائه.

وأسباب كثيرة واجتهادات لفلاسفة وباحثين وحتى متصوفين وكلها أو جلها رغم اختلاف العناوين من صراع حضارات إلى صراع ثقافات إلى صراع أديان وصولا إلى حروب، كل هؤلاء يقولون بوجوب احترام المبدأ الأزلي، مبدأ الإحلال والتجديد والتوالي والتعاقب التاريخي الحتمي، فلا ديمومة لفكر أو نظرية أو زعامة أو نظام.

ولعل الجدل الدائر حول قواعد ونظريات ومبادئ في كل فروع العلم والاقتصاد والاجتماع نالت مع مخترعيها درجة من القداسة العلمية في حينها، هذا الجدل بدأ في النيل من مصداقية هذه النظريات المستقرة ونقدها فقد سقط ماركس وإنجلز، وها هو آينشتين ونيوتن على المحك وداروين بات يصارع، وهؤلاء كنا ننعتهم تمجيدا بسابقي عصرهم وهم فعلا كذلك لكن بالنسبة لعصرهم، أما الآن فهذا عصر جديد وهؤلاء العظماء ومشاريعهم ونظرياتهم وزعاماتهم من عصر مضى نالوا نجاحا بمقاييس بيئة عصرهم.. أما بمقاييس عصر جديد فما أنجزوه هو الآن تحت المراجعة والنقد والتحليل، ولذا تعيش بعض الأمم أزمة طاحنة؛ فهي تتمسك بمقاييس عتيقة لعصور سحيقة وتطبقها على منتج عصر جديد فتخرج أفكار لا تمت للماضى ولا للحاضر.. مسخ مشوهة لا ملامح لها سقوطها وسقوط معتنقيها مسألة وقت لا أكثر.

نصف مقال..

لدي الكثير والكثير من أنصاف المقالات، وكعادتي كلها بدأتها بحماس فأنا لا أبدأ في الكتابة إلا بشروط ، أولها وأهمها التفاعل الشخصي ثم القناعة بأهمية الموضوع بالنسبة للرأي العام، وثانيها هل أنا على دراية كافية بالموضوع وبخلفياته المختلفة؟ ثم أبدأ في اختيار عنوان، والعنوان بالنسبة لي هو بمثابة البوصلة أرجع إلى مؤشرها كلما أتممت فقرة حتى لا أتوه أنا ويتوه القارئ عن الرسالة المراد توصيلها، ويستغرق ذلك ربما أسابيع يقل أو يزيد قليلا، لكن أحيانا كثيرة يفتر حماسي في نصف المقال وأتوقف رغما عني، فأنا لا أحب الضغط على المفردات فلطالما توقف فيض الأفكار التلقائي فسيظهر التكلف والركاكة جليين للقارئ وخصوصا أنني غير مرتبط بالتزامات زمنية أو أدبية مع أية جهة أو وسيلة نشر.

جنبت كل هذه الطروحات المبتسرة ووضعتها في ملف مستقل، واكتشفت أن المشترك بين كثير منها أنها طروحات شرعت فيها عقب أحداث، أبدأ منفعلا بالحدث كالعادة وأفرغ الموجات الأولى المنهمرة بغزارة، وبالطبع كلها انفعالات آنية، لكن عندما يأتي دور الوقائع والمعلومات الموثقة فلا أجد شيئا سوى تسريبات أو مناورات إعلامية تخدم أهدافا سياسية ثم يتوارى اهتمامي بالطرح شيئا فشيئا ثم يتلاشى.

وكعادتي في الحدث الأخير المثير هممت بنفس الحماس، وبدأت ولا أنكر أنني كنت متأثرا أشد التأثر من الناحية الإنسانية، وأفرغت الشحنات

الأولى، وكانت تعبيرات حادة طالت كل من كنت أظن أنه ضالع في هذه الجريمة البشعة، ثم اكتشفت أن الموضوع تم استغلاله لأغراض أخرى، فقد تم تنحية الشق الإنساني واستبداله بمآرب سياسية ممجوجة من أطراف أياديها ملطخة بما هو أبشع مما جرى لإنسان واحد عليه من الشبهات الكثير، فأياديهم ملطخة بدماء مئات آلاف الأبرياء، ناهيك عما جرى لدول تمت تسويتها بالأرض، ثم جرى على الطرح ما جرى على ما سبقه وحولته إلى رف المهملات، وعلى غير العادة وبعد حوالى الشهر أو يزيد عدت أتفحص ما كتبته في هذا الطرح، واكتشفت بعد مضي وقت كاف لتقييم الموضوع برمته أن الموضوع حمال أوجه كثيرة بعضها سنعرض له في هذا الطرح الشائك، وأقول شائك لأسباب كثيرة يعلمها كثير من القراء المتابعين.

أولا وكعادتنا وبوضوح شديد ودون مواربة فهذا الطرح هو دفاع عن الأمير السعودي الشاب الذي ظهر فجأة على الساحة وظهرت معه موجة جديدة كل الجدة في توجهات هذه البقعة من الجغرافيا، هذه البقعة التي يعتقد كثيرون – وأنا منهم – أن تيارات وجماعات وأشخاصا منها ومن محيطها الجغرافي مولت وأسست وكانت من الأسباب الرئيسة لموجة هادرة من العنف والإرهاب والتعصب والكراهية عصفت بأركان الكوكب الأربعة ولا تزال، ومن هنا سنبدأ لكن قبل أن نبدأ ننوه بأن الهدف الرئيس من هذا الطرح هو تشجيع هذا الشاب على اتخاذ خطوات أكثر جرأة في اتجاه الاندماج في منظومة حداثة تضيق الخناق وتفك الارتباط على ومع تيارات احتلت المنصة في المملكة والمنطقة بأسرها لعقود طويلة، فكان لها أن

شكلت وعيا ورأيا اجتاح معظم العقول وخصوصا الشباب، وهو التمايز الديني والعرقي والمذهبي لبقعة من الجغرافيا وساكنيها على كل بقية الكوكب وساكنيه بتأويلات مبتسرة، مما أوجد حالة من الانعزال أو الانفصام عن المجتمع الإنساني بأسره وبالتبعية كراهيته وتكفيره.

نعود إلى الحدث الذي أثار ضجة وأظنها لم تزل وإن كانت قد توارت مصداقيتها لأن من تبنى القضية لم يكن ضمن أهدافه على الإطلاق الشق الإنساني أو حرية الرأي والتعبير كما يدعون، فالأمير الشاب الذي كان يستحق الدعم والتشجيع والمساندة من كل من يهمه سلام العالم وأمنه واجه مؤامرة خبيثة بغرض إيقافه وتحجيمه من تيارات وكيانات ودول اعتبروه خطرا على مصالحهم وأهدافهم، فالشاب استشرف المستقبل بمنظور حداثي فرضه التطور الحتمي للكون، وهذا المنظور لا شك يفضح كل من تاجروا بهذه اللعبة الخطرة لأكثر من نصف قرن وهو هوس الدولة الدينية، تلك اللعبة التي أزهقت أرواحا وأضاعت أموالا وهدمت دولا وحرمت شعوبا من الالتحاق بركب الحضارة، ومن ثم نشأت حالة من الرهاب والكراهية في أرجاء الكوكب لعقيدة وأتباعها لا تستحق هذا المصير الذي سببه هؤلاء.

وهؤلاء هم من شكلوا هذا الحلف المشبوه فافتعلوا هذا الجدل حول اختفاء شخص (وهو فعل مشين مهما كانت الأسباب) إلا أن تحميل المسئولية لهذا الشاب بهذا التجييش الإعلامى الرهيب ودون دليل واضح عدا هذه التسريبات والإشاعات، هذا التجييش وأدواته الفاعلة المشبوهة يجعلنا نتساءل عن الهدف ولا يوجد سوى ما أشرنا إليه وهو تحجيم هذا

الشاب وإيقافه لأن استمراره في هذا الاتجاه الحداثي لهو خطر على هؤلاء المتاجرين بهذه الشعارات الزائفة داخل وخارج المملكة.

وبينما تلفظ أحدث تلك المغامرات آخر أنفاسها في سوريا والعراق ومصر وغيرها لم يتعظ هؤلاء، ولا يزالون يتحدون الكون كله بفكر عفا الزمن عليه، هذا الفكر الذي يحاول الأمير الشاب أن يتصدى له، وقد بدأ في إحداث حراك جديد بكل المقاييس، وإن كان لا يزال على استحياء نظرا لصعوبة التغيير الصادم في مجتمعات شديدة التحفظ نحو كل جديد نتيجة تراكم مخزون ثقافي مسموم تغلغل في العظام.

إن المقصد الرئيس من هذا الطرح هو تشجيع كل من يؤمن بالتعايش الإنساني وقبول الآخر طريقا وحيدا لإعمار الكون ونشر السلام بين كل الشعوب، وهي قيمة سامية عليا تحقن الدماء وتفتح طريق الرفاه والتقدم والتعارف بين الشعوب والتعاون البناء في تدعيم ثقافة الاختلاف والعيش المشترك غير المشروط بين البشر، واذا نجح هذا الشاب فيما يهدف إليه فلا شك سيكتب اسمه بحروف من نور وسيتحول من أمير إلى ملك يملك على قلوب وعقول كل محبي الخير والسلام في كل أرجاء الكوكب.

والقارئ المتابع يعلم بأنني وطوال العقد المنصرم وفي عشرات الطروحات كان فضح المتعصبين المتطرفين ومواجهتهم في كل المنطقة حكام وأفراد وكيانات هو هدفي الأوحد، ولا يزال.

هالات خشبية

كنت في العاشرة، ومازلت أذكر كيف تدهورت أحوال حياتنا مع ملامح خلاف دب بين أبي وجدي بسبب رغبة الأول في بيع منزل العائلة، وكان قد مضى على قيام حركة الضباط الأحرار ضد الملك حوالي العقد إلا قليلا، وضد رغبة جدي ولضيق الأحوال با ع أبي المنزل الكبير، ومرض جدي وتقاعد حزنا وتولى أبي عنه مهامه، وفي مطلع الستينات توفي جدي، وفي حوارات مجلس العزاء تعرفت على تفاصيل الخلاف، كان جدي محبا للملك ومطلعا على الأحوال، وقد توقع مبكرا آثار ما اتخذه هؤلاء الضباط الشباب من قرارت غير مدروسة (حسب رأيه) لعدم خبرتهم وانتماءات معظمهم الأيديولوجية، وقد عصفت أولى قراراتهم بمستوى معيشتنا مباشرة، إذ كنا نقيم في بيت عائلة كبير في قلب المدينة من طابقين به مشربيات وكهرباء وصنابير مياه ـ كما لم يسقط من ذاكرتي إلى اليوم أنه كانت لدينا كسارة للبندق، ثم انحدرنا إلى منزل ريفي متواضع في ما تبقى من إقطاعية لأحد الأعيان التي كان جدى يدير شئونها، كانت إقطاعية شاسعة لكن بعد أول قرارات الثورة في ما كان يسمى بالإصلاح الزراعي حينئذ تقلصت إلى بضع عشرات أفدنة نصفها بور والباقي يضع عليها اليد مستأجرون يدفعون – أو لا يدفعون – مبلغا زهيدا من الجنيهات سنويا، وتفتت الملكيات الكبيرة وتدهورت إنتاجيات المحاصيل الرئيسة وعلى رأسها القطن، وتبدلت الأحوال إلى النقيض، وتآكلت العائلات

الثرية التي كانت تقيم في أملاكها وهجروها، وشببت أنا مشبعا بإعلام أحمد سعيد ومُحَمَّد عروق من صوت العرب، وإعلام هيكل من الأهرام، وجاءت الهزيمة الكبرى وكنت في أوج سني مراهقتي ولم أكن أدري أنهم طبعوا بالحفر على ذاكرتي الخام هالات قداسة مزيفة لشخوص بعضها لم أستطع التخلص من تأثيره الكاريزمي حتى اليوم؛ فقد أحببت عبد الناصر رغم يقيني أنه ومن تلوه من تابعيه وتابعي تابعيه هم المسئولون الأول عن الهزيمة، وعن تدمير التعليم وعن تدمير الزراعة وإفساد القضاء، وكثير مما اكتشفته بعد أن تعديت مرحلة العواطف إلى مرحلة النضج الفكري والوعي بما جرى من منظور موضوعي.

فصناعة الهالات هي صناعة قديمة متوارثة في مجتمعاتنا، فالبشر لديهم عقول مفتوحة على مصراعيها وظيفتها التلقي على مدار الساعة ـ نقول مفتوحة وليست متفتحة ـ لا فلترة ولا تدقيق ولا نقد ولا تمحيص، فقط تلقي وتخزين منتج يملأ كل الفراغات، وعندما يستجد جديد فلا مكان له، ويظل الموروث المقدس خطا أحمر قانيا دونه رقاب ودم، مع أن هؤلاء الذين صنعنا لهم هذه الهالات بشر بنو آدم خطاءون بالفطرة.

وعكس من صنعنا لهم هالات العصمة والقداسة البيضاء، هناك من صنعنا لهم هالات سوداء أحطنا بها رؤوسهم، ولم نكلف أنفسنا عناء البحث عن الحقيقة، فعلى سبيل المثال تجرعنا في طفولتنا عن فساد ملك مصر ما يكفي للاعتقاد بأن كل ملوك الأرض كانوا فاسدين، مع أن الرجل غادر ملكه بمنتهى الأدب السياسي في مشهد يستحق عليه الثناء، ورموز أخرى دينية وسياسية وعسكرية وسعنا هالاتهم البيضاء أو السوداء وسيجنا

حولهم وكتبنا ممنوع الاقتراب أو التصوير أو البحث أو التحري في سيرتهم ومسارهم، ليس حبا أو كرها فيهم، ولكن حتى لا نكتشف مدى كذب الخدعة التي صنعناها بأنفسنا وصدقناها، وما أن يتجرأ أحدهم بلمس هذه التابوهات حتى يهيج صناع الهالات الخشبية المزيفة دفاعا عن وهم مترسخ في الأذهان، يخشون لو زال هذا الوهم فربما تنهض العقول المأسورة وتكتشف حقيقة مرة وهي قرون من الكذب المؤدلج، حينئذ ستكون العواقب وخيمة، والذين صنعوا من هتلر زعيما وكللوا رأسه بهالة تقديس غطت كل أوروبا هم أنفسهم الذين لعنوه وجرموا حتى من يذكر اسمه، فالنقد والبحث والمقارنة يتيح معرفة الحقيقة، نقد الأشخاص ونقد الأشياء ونقد الأفكار وحتى العقائد، فهو السبيل الأوحد للرقي والتقدم والازدهار، عدا ذلك جمود وتكلس.

وفي المحروسة اهتاج الهائجون وأرغوا وأزبدوا لا لسبب إلا لأن إحدى الكاتبات صرحت بأنها لا تحب شخصا ما (ونقول شخص) بسبب موقف ما، وكان إثمها الكبير الذي تستحق الرجم عليه أنها اقتربت من صاحب الهالة الذي تحول في لحظة إلى صاحب عصمة، وفي اعتقادي أن دفاع هؤلاء عن هذا أو ذاك ليس بسبب حبهم لهذا أو ذاك، لكنه بسبب الخوف من كسر الهالة واكتشاف أنها ليست هالات قداسة علوية لكنها مدلسات، هالات خشبية صناعة بشرية، ومازلنا في المحروسة نسمع العجب فقد نقد أكاديمي كبير دارس سير شخصيات هذه المرة شخصيات ليست دينية، أي لا يصلح لها تركيب هالات، لكنها شخصيات سياسية بامتياز، ولا ضير من التصريح بأن الرجل تحدث عن وقائع تاريخية لرجل

كردي هو صلاح الدين الأيوبي، وآخر هو أحمد عرابي، ومع التأكيد بأن الرجل قال ما يحتمل أنه الصواب وقد يكون خطأ والعكس صحيح تماما لكن هاج الهائجون وأرغوا وأزبدوا ورموا الرجل بكل الموبقات لنفس السبب الذي أسلفنا وشرحناه، وهو كذبة الهالات الخشبية.

سبب آخر في اعتقادى لهذه الظاهرة وهو الأخطر أن استعمار عقول الناس بهذه الظواهر يسهل اقتيادها كقطعان بشرية لا فسحة في عقولها لأي فكر(دخيل) قد يوقظ هذه العقول وتفيق من سباتها الطويل وتتطلع حولها حينئذ سيكون أول ضحاياها هم صناع هذه الهالات المزيفة، الهالات الخشبية.

هؤلاء قتلونا في النجع

حيث تبلغ عيدان القصب ذروة أطوالها في (كيهك) ويبدأ موسم الكسر (الحصاد) يكون موسم الثأر قد بلغ ذروته أيضا، ليس في نجع حمادي فقط، بل في كل النجوع حيث يسهل ترصد الضحية واصطيادها ثم التوغل داخل حقول القصب المترامية الأطراف للاختباء إلى أن يتوقف البحث الروتيني، ثم يعود كل شيء كما كان إلى أن يحل موسم القصب التالي، وتبدأ دورة جديدة من الترصد والقنص والاختفاء. كل ذلك يحدث بين قبائل هم في الأصل أبناء عمومة وأحيانا بين بيوتات في القبيلة الواحدة، ولقد ظل الأقباط على الحياد دائما بين هذة القبائل المتنازعة وكونوا علاقات مشاركة في تجارة وزراعة مع جميع الأطراف على السواء، ولثقة الجميع فيهم ازدهرت تجارتهم بل وكانت مهن بعينها قاصرة عليهم كالطب والصيدلة وصياغة الذهب وغيرها، وكانت السيطرة محكمة من كبار هذه القبائل وشيوخها على سلوك كل منتسب لهذه القبيلة أو تلك وكانت تسود تلك الأيام أخلاق الفروسية الأصيلة حيث لا خيانة ولا قهر ولا استئساد على ضعيف، ولم يجد التوتر سبيلا إلى هذه المناطق إلا في أواخر السبعينات حيث جرى ما جرى في أم الدنيا كلها وليس في الصعيد فقط .

لذا جاءت هذه الجريمة الخسيسة صادمة ومخالفة لكل الأعراف السائدة في هذه المنطقة، ومن الظلم تحميل هؤلاء الشبان الثلاثة وحدهم

جريمة ارتكبتها أمة بأكملها وعلى رأسها دستورها ونظامها الحاكم ومؤسساتها القانونية والتنفيذية والتشريعية.. الجميع أياديهم ملطخة بالدماء أما هؤلاء الشبان الثلاثة فهم المرحلة الأخيرة، القتلة المأجورون، لذا علينا أن نتساءل بصوت عال من قتلنا؟.. من قتلنا في نجع حمادي؟.. ومن قتلنا في كل نجوع مصر: نجع الكشح، ونجع أبو قرقاص، ونجع ديروط، ونجع المنيا.. الخ

هل قتلتنا السذاجة السياسية التي عشناها لعقود طويلة، ولم ننتبه إلى ما يحيط بنا من موجات الكراهية العاتية التي بثتها كيانات تحتية ممولة تمويلا مشبوها بغرض تأليب مكونات المجتمع وتحريضها على بعضها البعض لإفشال مشروع الدولة المدنية وحرث الأرض لإقامة ما يسمى بالدولة الدينية التي يعتبرون أن مجرد وجود الأقباط بعقيدتهم المغايرة معوق رئيسي لمشروعهم العنصري؟.. هل قتلنا شخوص من صلب العرق فضلوا التحالف مع النظام وتملقه حتى لا يغضب منهم ويحرمهم مما أعطاهم، شخوص لم نسمع منهم كلمة تذمر واحدة تدين الجرائم اليومية التي يتعرض لها شعب بأسره وعدا (أنثى) واحدة (وتم تحجيمها) التزم الجميع ببنود الصفقة المشينة؟

هل قتلنا قضاء مشقوق كان ملاذنا الآمن يوما ما عندما كانت منصاته تتلألأ بشيوخ أجلاء مبجلين ومهابين من الجميع ضمائرهم حية لا تعرف التمييز، شيوخ حافظوا على بنود معاهدات موقعة بين أعراق هذه الأرض صاغها ونفذها صحابة وتابعون منذ ألف عام، أما منصات اليوم التي يعتليها سقط القبائل الذين احترفوا الميديا والحروف الحمراء على

الصفحات الصفراء والوقوف على السلالم للتصوير، وتركوا تراث مُحَمَّد عبده والطهطاوي والسنهورى وعبد الرازق، وحكموا بتأويلات ابن تيمية والمودودي، قضاة لم يستطيعوا كشف عنوان الحقيقة في مقتل مائة شخص وحكموا بشيوع دماء الأبرياء وأصّلوا للفوضى وشجعوا الغوغاء على نقض عهود موثقة ومقدسة، وحضوا على التعدي على الأعراض والحرمات، وعاد مجتمع كان ينبض بإرهاصات دولة مدنية حديثة، عاد إلى دهاليز الكهوف المظلمة؟

هل قتلنا قضاء اخترقته تيارات ظلامية أشاعت الفرز والتمييز بين مكونات المجتمع على أساس الدين والجنس، ولا غرو أن تعلن أعلى وأعرق هيئة فيه عن رفض تعيين المرأه قاضية (في القرن الحادي والعشرين) قاضية (لتحكم في منازعات إدارية) وفي العام الماضي وعندما حل الدور على قبطي ليتولى رئاسة المجلس (مجلس الدولة) ساقوا من الأسباب الكاذبة والساذجة لتعطيل تعيينه ما لا يصدقه طفل رضيع، وكلها أسباب تفوح منها رائحة جيفة العنصرية البغيضة، وعندما ضغط عليهم النظام عينوه وعينوا عليه وصي (في سابقة لم نر لها مثيلا في التاريخ) حتى يكمل الشهور الباقية له على السن القانونية، ثم قذفوا به خارجا غير مأسوف عليه وهو أستاذهم جميعا.

وبنظرة على كم اللافتات المعلقة في الشوارع وعلى المباني والأسوار والمنشآت للتحذير من البيع أو الشراء أو التوكيلات المزورة مع النصابين والمحتالين نعرف حال القضاء في المحروسة، ناهيك عن جرائم بشعة غريبة على المجتمع المصري استشرت كلها في ظل غياب عدالة انشغل أهلوها

بصراعات مع النظام المرتعش ولي ذراعه وتهديده بالتحالف مع أعدائه.

القضاء الذي أنصف يوما طه حسين وعلي عبد الرازق، ضد طيور الظلام في عصور النور، واليوم في عصور الظلام يفرق بين رجل وزوجته بعد أن حكم عليه بالارتداد وثبتت عليه تهمة إعمال العقل، حكموا عليه خضوعا لتيارات سلفية أشاعت السواد والفوضى في كل اتجاه. ذلك هو القضاء في مصر، وهو ما نبكي عليه لأنه ضاع وهو يستحق بدل الدموع دماء لأن بدونه لا أمل ولا وطن.

هل قتلنا تعليم مهترئ زرع العنصرية والإرهاب في عقول غضة وعندما شبت هذه العقول لم تجد في خلفيتها إلا العنف والقتل تواجه به عالم بدا وكأنها فوجئت به أيما مفاجأة. تعليم جعل من ترتيب هذه الأمة العريقة في قوائم العلم والبحوث والابتكار.. شيء يدعو للأسى والأسف، تعليم اختطفوا فيه أبرياء وعلموهم أصول لي الأعناق إلى الخلف وفسروا نصوص وأولوها لتخدم أهدافهم الخبيثة والدولة آخر من يعلم وحتى لو علمت فهي عاجزة عن الفعل لأن كوادرها إما متواطئة أو جاهلة لا تدرك أن المنتج النهائي لهذه العملية هو مسمار في نعشها. تعليم أصبحت المدارس مفرخات خصبة لمدمنين ومتطرفين وبلطجية ومدرسين جهلة وطلبة أميين.

هل قتلنا وضع ثقافي واقتصادي واجتماعي وإعلامي وحتى الرياضي، أوضاع مزرية صبغوها بالدين وأهاجوا علينا كل القوى في كل الدنيا وجيشوها ضدنا وخسرنا في كل المحافل وتسببوا في تشويه وجوهنا ولطخوها

بوصمة العنف والإرهاب، وأصبحنا نقف في طوابير منفصلة في المطارات معزولين كمرضى الجذام فقط لأننا من سكان هذه البقعة التي كانت يوما أرض السلام هؤلاء الذين دينوا كل القضايا والنتيجة على الساحة معلنة للجميع نستجدي ربع ما كان معروضا علينا من فلسطين (وحتى الرقع التي منحونا إياها مؤقتا انقسمت) وسوف يتشظى السودان شئنا أم أبينا والعراق مرشح بقوة للتفتت على الأقل لثلاث دويلات ناهيكم عن لبنان والصومال واليمن.. أما مصر فالجميع في انتظار أن تسقط البقرة..

إن ما فعله هؤلاء بهذه المنطقة فاق كل ما فعله بها كل من استعمروها على مر العصور. كل هؤلاء قتلونا.. قتلنا القضاء، قتلنا التعليم، قتلنا الإعلام، قتلتنا الثقافة.. كل هؤلاء قتلونا بموجب صفقة المراجعات المشينة التي تمت بين تيارات العنف والنظام بحيث تتوقف فيها جماعات العنف عن قتل الأقباط والشرطة والسياح مؤقتا بينما تطلق الدولة أيديهم في إرهاب الشارع ثقافيا واجتماعيا وضخ موجات من الكراهية ضد الأقباط عبر كل الميديا المتاحة بدءا من ميكروفونات الزوايا وحتى الفضائيات الممولة تمويلا سخيا من التنظيمات متعددة الجنسية، بالإضافة للسماح بالتمدد الأفقي في الأطراف، بواسطة ذراعين قويتين ممولتين من نفس المصادر هما أنصار السنة والشرعية.

كل هؤلاء قتلونا.. والواضح أن أطرافا من الصفقة يختبرون مدى التزام النظام بما سبق واتفق عليه وخصوصا مع اقتراب صفقات انتخاب وتوريث وتعاملات مشبوهة هنا وهناك، ليظل الأقباط مضطرين لأضيق الطرق ويتقلص مطلبهم من الحرية إلى الحماية وتكريس انسحابهم من

المجتمع واستمرار الاختباء في الكنيسة.

كل هؤلاء قتلونا.. وحتى عندما خرج الرئيس عن صمته بعد عشرين يوما وقال كلاما كبيرا، وتوقعنا أن تهب كل الميديا لتردد شعارا خطيرا أطلقه الرجل لأول مرة بهذا الوضوح (الدولة المدنية) لكن ساد نوع من التعتيم المريب، وعلى غير العادة لم تعلق جريدة واحدة على مقولة الدولة المدنية. إن هذا الصمت أنشا تساؤلا كبيرا هل هذا الصمت برغبة الدولة أم فوجئت به؟

أما صخب شارع الكرة فقد دفن آخر التقاليد العريقة التي كان المصريون أساتذتها يوما وهي شراكة الأحزان، وبعيدا عن التعداد الذي يثير الحساسية فإن ملايين المصريين اعتصر قلوبهم الحزن، الحزن على فلذات الأكباد، والحزن على الوطن الذي ضاع، لكن وقفة مع النفس باتت لا مفر منها، إلى أين نحن ذاهبون فإن لم نفق وننظر إلى الخلف ونتعظ فإن الأسوأ آت لا محالة.

إن الحرية لم تأت أبدا منحا وتعطفات، لا من محتل ولا من حاكم ولا حتى من شريك وطن، ومع احترامي لكل الآراء المعلبة في هذا السياق فإن دماءا أخرى يجب أن نبذلها فما دمنا نبذل دماءا ونحن لا نفعل فلماذا لا نبذلها ونحن نفعل، نفعل ما فعلته كل الشعوب في سبيل حريتها ومستقبلها لا لننقذ أولادنا وأحفادنا فقط، بل لننقذ الوطن كله من فيضان نهر الفرز الهادر الذي يتوهم البعض أنه سيتوقف عند الأقباط أو النوبيين أو بدو سيناء، أو غيرهم، بل سيفيض بتصنيفات مبتكرة كل يوم،

تصنيفات فرز ستطول كل من يتصور أنه خارج القائمة..

أما الارتكان إلى حلول الرهبان مع العربان فسوف يهبط بسقف التطلعات من الحرية إلى مجرد استجداء حق الحياة. إن الذين يروجون لمقولة النسيج الواحد وهذه التعبيرات الساذجة يجب أن يعوا أن الصراع بات صراعا عرقيا خالصا كرسته أنظمه ديكتاتورية فاسدة ألهت أمة عريقة وأدخلتها في سراديب مظلمة من الجهل والتخلف والعنصرية، وأشاعت روح الكراهية بين مكونات المجتمع وها هي النتيجة المفزعة المصريين الذين كانوا مضرب الأمثال في التعايش أصبحوا مرشحين بقوة لاحتلال مركز متقدم بين دول الإبادة الجماعية والعزل العنصري بفضل نظام مرتعش ومتردد سيكون أول من يدفع الثمن.

وجدتها

في صباي كنت وأقراني دائما ما نتشاحن مختلفين على من هي الأجمل منهن، وهن كن تلميذات مدرسة البنات الثانوية المجاورة لمدرستنا مدرسة البنين حيث كان الطريق يجمعنا كل يوم ذهابا وعودة، وكانت معرفتي المحدودة بالشأن الإنساني وقتها تغلق على عقلي أسباب هذا التباين الشديد في الآراء، وكنت أتعجب لماذا وهي صورة واحدة تختلف نظرتنا إليها، فما بين تعبير جميلة جدا أو فاتنة وتعبير دميمة وبينهما متوسطة الجمال كانت آراء الرفاق تتأرجح، ونادرا ما كانت تحصل إحداهن على أغلبية ـ ولا أقول إجماعا ـ في الرأي، وأذكر أن درسا خاصا جمعني مع إحداهن وكان رأيي المسبق فيها متطرفا حيث كنت أعتبرها نقيض الجمال، ولسبب ما كنت أعتقد أنها تعرف رأيي فيها، لذا كنت أتحاشى النظر أو الحديث إليها، لكن مع الوقت ومع جو مرح يصطنعه المدرس للتخفيف من ثقل المادة ـ وأذكر أنها كانت أحد فروع الرياضة البحتة ـ بدأ الجليد يذوب بيننا رويدا رويدا، في البدء اختلست نظرة إلى دفترها ومازلت أذكر تلك الحركة اللا شعورية التي قمت بها فجأة حيث أغلقت دفتري بسرعة البرق عندما رأيت دفترها ذي الصفحات المنمقة والخط المنسق الجميل عكس حال دفتري المهلهل وخطي الرديء..

نسيت أن أقول لكم أنه في خضم الخلاف مع الأقران ابتدعت لنفسي مقياسا خاصا للجمال، خيل إلي وقتها أنني اكتشفت نظرية فريدة يمكن بها حسم الخلاف حول جمال أو دمامة هذه أو تلك، كانت النظرية المبتكرة أنني

كنت أتخيل شاربا في الوجه الأنثوي المراد تقييمه، فإن اتسقت ملامح الوجه مع الشارب كانت دميمة، أما إذا رفضت ملامح الوجه وجود الشارب فتلك أنثى، عندئذ يمكن تقييم درجة جمالها، وفي غفلة منها طبقت النظرية المزعومة على وجهها، وبدلا من أن أصيح كما صاح نيوتن وجدتها وجدتها، وجدتني أضحك بصوت مسموع، مما أثار فضول وتساؤل الجميع وعجزت بالطبع عن الإفصاح عن السبب، فقد رفضت ملامح الوجه بشدة وجود الشارب المزعوم، عندئذ فقط أدركت مدى سذاجة النظرية الفريدة في قياس الجمال، وكذا مدى الخطأ الفادح الذي ارتكبته في حق وجه الزميلة، ومن ثم بدأت أعيد حساباتي فالوجه لم يتقبل وجود الشارب، ثم اكتشفت عن قرب أشياء أخرى من تلك التي لا ترى عن بعد، اكتشفت صوتها الذي لم أكن قد سمعته من قبل صوت رقيق ناعم هادئ واثق، واكتشفت رائحتها حيث لكل أنثى رائحة تميزها، ورأيت أشياءً أخرى من تلك التي لا ترى إلا عن قرب، رأيت ما لا يُرى عن بعد رأيت ابتسامة عذبة تكشف عن صفي أسنان متناسقين، ورأيت روحا مرحة جميلة تسكن في هذا الكيان، وهو الجمال الكامن الذي لا يحكم عليه بلصق شارب على الملامح، ومن يومها عرفت أن الجمال هو إحساس شخصي نسبي محض تحسه في وجه أو في زهرة أو في لوحة أو في نغمة أو في تشكيل أو في كلمة، حيث لا معايير محددة سلفا ولا قوالب جامدة للقياس، وفي رحلة الحياة رأيت وجوها جميلة بمقاييس الناس، وعندما اقتربت منها تبدلت الملامح إلى النقيض، والعكس كان صحيحا.

ولولا متذوقيه ما كانت فنون ولا إبداعات ولا ابتكارات، حيث حب الجمال هو حب الحياة، وهو الدافع الأول لإعمار الكون واستمرار الجنس

البشري وحمايته من الانقراض، وعندما جادت السنون علي بخبرات الحياة عرفت أن اختزال الجمال في وجه أنثى هو قصور فكري يجمد شعور الإنسان عند منحى واحد من مناحي الحياة، وأن جمال الوجه هو عنصر واحد ظاهر من مظاهر الجمال عند الأنثى، وهناك عناصر أخرى عديدة منها الظاهر ومنها الباطن، وأن جمال الأنثى هو محصلة كل العناصر مجتمعة، والأنثى الجميلة هي مظهر واحد من مظاهر جمال الحياة التي منها الفن والحب والسلام والخير والحق والنظام والكمال والنور والقوة وكل القيم السامية ومكارم الأخلاق التي تبنى بها الحضارة الإنسانية، وكما للجمال محبوه ومريدوه هناك أعداؤه وكارهوه، هناك محبو نقيضه محبو القبح والدمامة والفوضى والظلم والظلام والعنف وكل قيم الشر الدنيا، القيم التي تدمر الحضارة الإنسانية، ومحبو الجمال لا يرونه لعنة بل يرونه هبة من الخالق يتأملها الناس بسمو فكر لا بنظرة اشتهاء حيواني، ومحبوه يضعونه في إطار ليظهروه متعة للناظرين، وكارهوه يتفننون في طمسه ويشوهونه ويعتبرونه فتنة ملعون من يقترب منها..

ومع مضي قطار العمر تبدلت نظرية الشوارب بنظرية القلوب، تلك التي لا تخطئ في تقييم الأشياء تقييما خاصا يجمع بين ظاهر الأشياء وباطنها، وسيظل اختلاف الآراء في تقييمه ـ الجمال ـ قائما إلى أن يصيح أحدهم: "وجدتها.. وجدتها" ثم يكتشف ما اكتشفت سيجد نفسه يضحك بصوت عال.

وجع البعاد

هذا الطرح ليس لجلد الذات، ليس لأنها لا تستحق الجلد، ولكن لأنه لم يعد يجدي الضرب على جلد ميت، فأنا ابن وطن ثري غني عامر، ثري بموارده وسكانه، غني بحضارته، وعامر بثقافته، مكانه الطبيعي رأس القائمة فوق في عنان السماء، لكن الواقع يقول أنه وطن مسبي ومسلوب، وطن سباه التخلف واستلبه الجهل، وطن أمسك برقبته عنصريون طغاة، قيدوه بسلاسل التمييز والطائفية والكراهية والفساد والعنف والقتل والدم، وهم يحاولون الآن نسخ القائمة وتصديرها لهذه الأمم علها تلحق بنا، تلحق بركب التخلف والجهل الذي ننعم به ونتمرغ فيه.

نعود إلى رحلتنا، فقد منحت شهرا من الابتعاد القسري، ولولا شوقي الجارف لرؤية حفيدتي ووالديها لما فكرت في السفر، السفر الذي كنت أعشقه في شبابي، لكن التباين الشديد والمتسارع في الأحوال بين وطني والبلاد التي أزورها بات يسبب لي ألما نفسيا بعد العودة، وجع يستمر وقتا ليس بالقليل، بالإضافة إلى أن التعامل مع السفارات الغربية يتطلب جهدا نفسيا ولوجستيا خارقا، فهم متعالون وخائفون ولا يميزون، لذا يعتقدون بأن تعقيد الإجراءات هو وسيلة حماية وهم واهمون، وبقدر ما استمتعت بالتجوال والسياحة والعلاج في ثلاث دول هي قلب أوربا، بقدر ما حزنت على أحوال بلادي، فلا شرطيا في الشارع، ولا سيارات مقلوبة ومحترقة على الطرق، ولا أعمدة إنارة مائلة ومضيئة في منتصف النهار، ولا تلال

أزبال مكومة على الطرق، وعلى ذكر الطرق فحدث بلا حرج عن النظافة والنظام والالتزام والتنسيق، وعلى الحدود بين هولندا وبلجيكا لم نر دبابات وأبراج مراقبة وجنود مدججين بالسلاح، رأينا عربة آيس كريم وأكلنا وعلى يسارنا بلجيكا وعن يميننا هولندا، ورأينا الجمال في الشوارع، كل أنماط الجمال، وبالطبع رأينا الجمال الأنثوي الذي لا تملك عند النظر إليه إلا أن تسبح لخالق الجمال، وهو جمال على سجيته لكنه مصون كجواهر داخل خزائن لا يجرؤ أحد حتى على مجرد النظر إليه نظرة رديئة، وهنا تحضرني الصورة الكئيبة في أوطاننا حيث تغلف النساء تغليفا كاملا، ومع ذلك لا تسلمن من الجوارح المنتشرة في الشوارع، وبالقياس النسبي على مستوى الجمال الأنثوي الذي رأيته هناك ربما لو لم يكن هذا الغلاف موجودا لكان حافزا أكثر على الفضيلة، ورأينا الكنائس دورها مقصور فقط على دقة جرس تذكر بانقضاء الساعات واقتراب الساعة الكبرى، وتذكر – فقط تذكر – بالقيم العليا ومكارم الأخلاق المطلقة، الحرية والإنسانية والقبول والتسامح والخير والجمال والعمل والنزاهة، وهي دعامات تقدم ورقي هذه المجتمعات.

لكن للموضوعية وحتى نخفف قليلا من درجة القتامة في أحوالنا نقول بلا مبالغة أو تحيز بأن المطار المصري الذي غادرت منه كان أفضل وأنظف وأرقى من مطار الوصول في قلب أوروبا، والموضوعية تقتضي القول أيضا بأنه عندما زرنا شاطئا على بحر الشمال حيث تقترب درجة الرطوبة من ٨٠٪ عرفت لماذا يعشقون شواطئنا، فقد كانت الطائرة الألمانية ذات الـ ٤٠٠ راكب القادمة إلى أحد مصايفنا الشهيرة عندهم كنا الأسرة المصرية

الوحيدة تقريبا بين الألمان والهولنديين والبلجيك والفرنسيين رغم بدء الدراسة رسميا في كل أوروبا، نقطة أخيرة وهي بحكم خلفيتي المهنية فعندما حط الطيار على ممر الهبوط كان هبوطا ثقيلا بكل المقاييس، وهنا نذكر بسمعة الطيار المصري في العالم.

أما عن المنظومة الصحية التي شاءت الظروف أن نقترب منها فهي شيء خارج المقارنة، وعندما أقول خارج فأنا أقصد أن ما لديهم هو منظومة صحة أما ما لدينا فهو منظومة مرض، والبون شاسع بين نظام يستهدف تحسين صحة شخص عنده إرادة الشفاء، فهناك أمل في الحياة يود العيش لأجله، وبين نظام يستهدف إنسانا بائسا محبطا مهموما ليس لديه ما يشجعه على الاستمرار في الحياة، وبالتالي ليس لديه إرادة الشفاء، وربما يذكرنا القارئ بالوعد الذي قطعناه في مستهل الطرح بعدم الاسترسال في جلد الذات، لكن في هذه النقطة بالذات أنا مضطر لأن ما رأيته رأي العين جعل واقعنا محبطا أشد الإحباط، فما بين نظام تعليم طبي لا يصلح حتى لتأهيل حلاق صحة، وبين نظام صيدلة أقرب لمنظومة البقالة والعطارة العشوائي، وبين نظام تمريض فاشل تخاف حتى من التطلع إلى وجوه أصحابه المنفرة، وبين أجهزة عقيمة عبارة عن لوطات منتهية الصلاحية أعيد طلاؤها في الصين وصدرت إلينا، وتدير كل هؤلاء منظومة إدارية فاسدة، مع نظام تأمين يضحك فيه الجميع على بعض، فالطبيب يكتب للمريض ما يريده رخصة للتغيب المدفوع الأجر وقائمة من الأدوية يستبدلها المريض بمستحضرات التجميل، ناهيك عما يسمى بالمستشفيات وهي مبان أقرب إلى أي شيء عدا أن تكون مكانا للاستشفاء والنقاهة.

القارئ الفاضل.. لعلك تلاحظ مدى انفعالي، ولا أقول انبهاري، فالحزن على هذا الوطن منبعه عشقي له، فأنا موقن كل الإيقان أننا نملك ما لا يملكه هؤلاء الذين سبقونا، لكننا مقيدون بسلاسل الماضي، الماضي الذي لا يستطيع أحد الاقتراب لفحصه أو نقده أو تفسيره بقواميس العصر، ومن يغامر فمصيره محفوف بالمخاطر..

أما هؤلاء فقد قيودهم حطموا التابوهات وحرروا العقول ودفعوا ثمنا باهظا دماء ملايين من البشر، بسبب حروب دينية، وخلصوا إلى أن حرية العقيدة والمذهب هي الحل الأوحد للنهضة، وخلصوا إلى أن الوحدة والتكامل هي الحل الناجع وأصبحت الحدود مجرد علامات سياحية للفرجة، وخاضوا صراعات اجتماعية وخلصوا إلى أن المجتمعات يجب أن تتكافل كوحدة واحدة فلا غبن أو تهميش أو احتقار أو تمييز لطبقة أو جنس أو مهنة، وخاضوا صراعات اقتصادية، وخلصوا إلى أن الضريبة مقدسة وهي الوسيلة المثلى لتوزيع عادل للثروة على الجميع، وأن توازن المصالح بين العامل وصاحب العمل هو ضمانة لاستقرار بيئة العمل المنتج المربح للجميع..

واليوم هم يحصدون نتاج عرقهم وجهدهم وبحثهم ومثابرتهم والتزامهم، أما نحن فنحصد نتاج التواكل والاتكال والغيبيات والكسل والفوضى والإهمال والتعصب والعنصرية.. نحصد دماءً وقتلا وعنفا وبشرا متألمين وأطفالا بؤساء مشردين في مخيمات في طول هذه المنطقة الموبوءة وعرضها، هذا هو الوجع الذي يسببه البعاد، نرى الصورة من خارج الإطار، نراها من بعيد فنعرف كم هي مؤلمة وقاتمة وحزينة.

الصورة من بعيد

كان الرومان هم أول من أنشأوا نظاما لمراقبة المعارك عن بعد، أبراجا لمراقبة المعارك البرية، ونواطير على صواري السفن لمراقبة المعارك البحرية، وكثيرا ما كانت نتائج المعارك مرتبطة بمدى كفاءة المراقبين ودقة توجيهاتهم للمحاربين في الوقت المناسب لأنهم يرون المشهد مكتملا أي الصورة من بعيد.

وفي الديمقراطيات العريقة تمثل المعارضة السياسية آلية المراقبة عن بعد، وحتى في الرياضة يخطئ حكم كرة القدم لأنه يحكم من داخل الميدان، والبحث جار عن وسيلة للمراقبة عن بعد من خارج الساحة، ومن ثم تلافي الأخطاء الناتجة عن إصدار أحكام سريعة من قلب الحدث أي من داخل الصورة. والصوفي الجزائري المسيحي أغسطينوس قال: "جلست علي قمة العالم عندما لم أحتج شيئا منه" أي أنه رأى الصورة من بعيد، رآه علي حقيقته وحكم بأنه فان وقبض الريح.

وربما تعبر بالإنسان فكرة أو تجربة يعتقد في حينه أنها مبهرة وربما يصيح: "وجدتها.. وجدتها"، وبعد فترة يكتشف مدى سخافتها وسذاجتها. والنظر للفكرة أو التجربة من بعد زماني أو مكاني يزيدها وضوحا وشمولية واتزانا، وهي علي بعد كاف لتقييمها.

والمقصود بالبعد الزماني هو إتاحة الفرصة للنظر للقضايا والأحداث من داخل بيئة جديدة ومختلفة، والبعدان: الزماني والمكاني يوسعان قاعدة

المخروط الذي يوضح للإنسان ما هو موقفه الحقيقي من الأحداث وموقعه الحقيقي في الأحداث.

والقضاء الفرنسي، وهو المرجع الفقهي الأول لكل النظم القضائية على وجه الأرض يمنع على القاضي إصدار أحكام في أي قضية إلا بعد حد أدنى من الوقت من نهاية التحقيقات، مهما كانت درجة وضوح القضية، وكثير من الشعوب لا يدفنون موتاهم إلا بعد ثلاثة أيام على الأقل، والقرارات المصيرية في حياة الإنسان يلزم لها الهدوء والروية، أي يلزمها بعدا حتى تصدر ناضجة بتؤدة وتمحيص.

والأحداث تولد كأجنة تتبلور مراحل تشكيل ملامحها بمرور الزمن، وكم من أحداث اختلف المفسرون في تقييمها وتصويرها حتى من عاصروها وكانوا فيها شخوصا فاعلين، والأحداث لا تكتمل صورتها إلا باكتمال ظهور نتائجها: المباشرة، وغير المباشرة، وهذه وتلك قد تستغرق عقودا وأحيانا قرونا. وعندما يسترجع الإنسان شريط أحداث العمر بنظرة ناضجة لكل العناصر: الناس والمكان والزمان، ربما يتمكن من التقييم الصحيح، فهناك من الناس من كرهناهم خطأ وهناك من الناس من أحببناهم خطأ، وهناك من الأماكن ما تواجدنا فيه خطأ وهناك ما تواجدنا فيه صواب، ويعترينا الأسف الشديد عندما يتضح استحالة تصحيح الماضي الذي ولى، الذي لم نكن فيه نعرف الخطأ، لكن قد نظفر بتقييم عادل للأمور حتى نريح ضمائرنا القلقة من نتائج أحداث مرت ولم يكن لنا فيها اليد الطولى.

والصورة من بعيد تعني عين المراقب المتأمل الفاحص المحايد، ومن ثم

يكون التقييم أقرب إلى الصواب، لكن أحيانا تتوافر كل هذه العناصر لكن يبرز تقييم مخالف لنفس الحدث، لا لشيء إلا لأن عاطفة شخصية صبغت الحكم أو التقييم وطوحت به في اتجاهات مغايرة تماما للحقيقة، وكم من قضايا حكم فيها قضاه بأقصى عقوبة ثم نقضها قضاة آخرون من نفس المنصة وحكموا بالبراءة، وأثبتوا العوار والفساد المشين في أحكام زملائهم، والفريقان يدّعون أنهم أصدروا عنوان الحقيقة بضمير مستريح، وهم محقّون في إدعائهم فكل منهما رأى صورة مغايرة أصدر حكما بموجبها.

وفي أحداث التاريخ تبدو الإشكالية أكثر تعقيدا، فكم اختلف المؤرخون والمفسرون في أحكامهم على الأحداث وأبطالها من النقيض الى النقيض بدءا من معاوية وقتل الحسين وحتى جمال عبد الناصر وثورة يوليو. والصورة من بعيد لأحداث تروق لنا هي صورة مبهجة خلفيتها الألق والسرور وكثيرا ما نستدعيها، والعكس تماما لأحداث مكروهة فهي صورة مقبضة خلفيتها الحزن والكآبة وتلك نهملها قدر ما نستطيع.

وكما يمكن النظر من بعيد لصورة من الماضي يتمتع البعض بموهبة النظر من بعيد لصورة من المستقبل، يتخيل مكوناتها ومدى ملاءمتها ويستشرف حتى خلفيتها، وهذه الموهبة هي لصيق النجاح للأفراد وحتى للشعوب. وما ينطبق على الصورة من بعيد ينطبق أيضا على الصوت من بعيد فكما نستغرب أحيانا صورتنا المسجلة الثابتة أو المتحركة، نستغربها وكأنها لغيرنا، كذلك أصواتنا المسجلة التي سبق وصدرت من حناجرنا نسمعها بشكل مغاير وكأنها لآخرين. تلك هي الصورة من بعيد، تتعدد

أبعادها كلما ابتعدنا عنها، وتظهر مجسمة، وتتضح تفاصيل نستغرب عندما نراها مع أنها كانت معنا في قلب الصورة وفي قلب الحدث ولم نرها إلا بعد النظر إلى الصورة من بعيـد.

في المسألة العرقية

يمكن للإنسان أن يتجول بين الأفكار والثقافات وحتى بين العقائد، يطلع ويقارن ويتفحص ويستزيد وينقض ويحلل ثم يستريح لفكر بعينه ويميل لثقافة بعينها، ويشاركه هذه الاختيارات دون اتفاق مسبق جل أو كل أبناء عرقه، لكن لا يستطيع الإنسان أن يتجول بين الأعراق التي أنتجت هذه الثقافات وتعتنق هذا الفكر وهذه العقائد، حيث يستحيل أن يتقمص إنسان عرق غير عرقه لسبب جوهري هو أن التجوال في الحالة الأولى وسيلته العقل لأنه فكر سابح في الفضاء ما علينا إلا أن ندير مؤشرا أو نفتح كتاب ثم نغوص في أفكار الناس وثقافاتهم ومعتقداتهم نتعرف عليها ونتفاعل مع طروحاتها، أما في الحالة الثانية فالوضع مختلف تماما، فالعرق مكون ماديا بحتا، إنه مجموعة من البشر ذوو صفات مشتركة غالبة لونا وملامح وطولا ووزنا، وأحيانا رائحة، بالإضافة لشريط وراثي مطبوع على خلاياهم يمنع على الإنسان (إن لم يتزاوج بغرباء) أن يخرج من هذه المظلة القسرية التي لم يخترها.

وعلى سبيل المثال عندما نقول أنه عربي يتداعى بالضرورة أنه مسلم، ويتبع ذلك فرعية أخرى أنه سني، وإن قلنا مثلا أنه قبطي فهو مسيحي، ومن ثم غالبا فهو أرثوذكسي، وبالقياس إن قلنا أنه فارسي فهو مسلم شيعي، وهكذا لو كان هنديا أو صينيا أو أنجلوسكسونيا، أي أن كل عرق يعيش في بيئة امتزج فيها بعقيدة تواءمت معه كمكون بشري، ثم أنتج هذا

الامتزاج بين العرق والعقيدة والبيئة فكرا وثقافة لها طابعها المتفرد، فعندما امتزج العرب بالإسلام في بيئة صحراوية كان النتاج الفكري والثقافي مختلفا عما نتج من امتزاج الأفارقة أو الأمازيج أو النوبيين أو الأتراك بالإسلام في بيئات أخرى مختلفة، أي أنه كان العرق أولا ثم امتزج العرق بالدين في بيئة ما ونتج عن هذا التفاعل فكر وثقافة الخ، فعند ذكر العرق يتداعى في الذهن لا إراديا سلم التوصيفات: الدين والثقافة والفكر، وربما المهنة والملبس ونوعية الغذاء.

وكما توافق العرق عقيدة توافقه أيضا حرفة، وعلى ذكر الحرف وبالتطبيق على مصر ظلت حرف بعينها قاصرة على أعراق فظل الأقباط يجيدون ويحتكرون مهن كالنجارة وصياغة الذهب والإسكافية، وحتى سنين قريبة لم ينفض عنها احتكارهم إلا بعد أن دخلت الآلات الحديثة في صلب الحرفة، وبالمثل كانت مهنة كالرعي قاصرة تماما على العرب والبدو الرحل ولا تزال حتى اليوم

أما من يذهب إلى الميناء الشهير أنتويرب في بلجيكا فسيرى أن اليهود لم يتنازلوا لأحد عن مهنة أجدادهم، وهي صياغة وتجارة الماس والأحجار الكريمة بكل أنواعها وهي تقريبا حكر عليهم في العالم كله (والحدبث هنا عن اليهود كعرق بشري).

أما عن الصراعات التي دارت وتدور في كل الدنيا وإن حُمِلت بدعاوى هامشية كثيرة فهي أولا وأخيرا صراعات عرقية بحتة حتى لو استطاع أمراء الحروب الدهاه إخفاء هذا السبب الرئيس وإطلاق

تسميات أخرى عليها أبرزها صفة القداسة حتى يتم تقليص معارضيها وتحييدهم، والحقيقة إنه صراع من أجل حيازة الأرض والانفراد بالسلطة وقهر بقية الأعراق والتسلط عليهم كما أعلنها هتلر صراحة ودون مواربة، وحدد الرجل بوضوح أعراقا يجب إخضاعها للعرق الآري وأعراقا أخرى يجب إبادتها نهائيا، وأعراق ثالثة اعتبرها الرجل أعراق ناشئة من نظرية النشوء والارتقاء، البشر ذوو الجماجم المفلطحة حسب دارون، وتلك أعراق متدنية وظلت أفكار العبودية لتلك الأعراق والسيادة عليها مسيطرة لحقب طويلة في كل أرجاء الكوكب، أما بقية الزعماء قبله أو بعده (أي هتلر) فقد التفوا حول القضية بمسميات لاستنهاض الهمم والحماسة، بدءا من الأنجلوسكسون والفايكنج مرورا بالسلاجقة والتتار وحتى العرب واليهود.

ولما انفرط عقد الأعراق إلى قبائل انفرط معه عقد الأديان إلى مذاهب وبعدما كان لكل عرق دين أصبح لكل قبيلة متفرعة من عرق مذهب من نفس الدين إمعانا في الاستقلالية واستعدادا لوضع المذهب الجديد في المواجهة عند الضرورة أي عند نشوب الصراع المستقبلي بين القبائل.

وعندما قامت الحروب المسماة بالصليبية كانت حربا بين العرب والأوربيين بهدف تصفية حسابات قديمة تمت بنفس النمط في الأندلس وصقلية ومالطة وهدف آخر هو توسيع الإمبراطوريات التي ضاقت على النبلاء والأمراء وباتت في احتياج شديد لمساحات لتوزيعها عليهم، وكان الصليب المظلوم الذي اتخذه الأوائل علامة اتضاع وتسامح، واتخذه هؤلاء

علامة قهر وحرب. وحتى في الفتوحات الإسلامية تم تقنين (وأحيانا منع) دخول الناس في الدين الجديد لاعتبارات عرقية محضة

وفي بلجيكا الهادئة الصراع نائم بين الجرمان والسلتيك، وهم قبائل من نفس العرق والدين وفي أيرلندا يتصدر المذهب الديني عنوان الصراع (القبلي) حيث كني الصراع باسم المذاهب أي الكاثوليك والبروتستانت، ولا يزال الصراع بين الهنود الحمر والغزاة في أمريكا اللاتينية قائما منذ قرون

وفي عالمنا العربي يبدو المشهد أكثر وضوحا حيث تتقاتل الأعراق والقبائل داخل الأعراق ولم يمنعهم وحدة الوطن أو الدين أو المذهب من حقن الدماء في لبنان واليمن والصومال والسودان ومصر في صراع مستدام على الأرض والسلطة والثروة صراع الأعراق الأزلي، ويسقط القتلى وتسيل دماء الأبرياء، ويظل السبب الرئيس المعلن على الواجهة العريضة الدين ولا شيء غير الدين، وإلى ان يحصل (حزب الله) و(جيش الرب) على النصر المبين، سيظل الصراع عرقيا خالصا مهما قيل من تبريرات وتغريرات، ليظل شريان الإمداد والتموين بالبشر مفتوح دائما لتغذية الصراع، ولا تستطيع وسيلة ضمان سريانه إلا المبررات السماوية التي يساق بها البشر مسلوبي الإرادة لهذا الآتون الأزلي.

وسمح الله بالاختلاف والتعدد: أعراق وإثنيات وعقائد ومذاهب كل يختار ويحترم اختيار الآخرين في ظل الحرية التي منحهم إياها الخالق ليحاسب كل حسب اختياراته، وكان رحيما بالعباد ولم يكن العباد رحماء

بأنفسهم، تقاتلوا أعراقا وقبائل وكل يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة، ويحاول دعاة الحروب الترويج لقدرية هذه الصراعات كأوامر إلهية لا راد لقضائها، لكنها في الحقيقة صراعات أعراق وقبائل للسيطرة والامتلاك والقهر، بسبب السلطة والأرض.

في النهاية يتبقى توضيح للقارئ العزيز أن هذا الطرح لا ينبغى توصيفه على أنه مبحث في علم الإنسانيات أو ما شابه، لكنها تأملات ربما تلقي الضوء على أحداث جارية على الساحة.

على مشارف السبعين.. صدمة المرآة

عندما تصدمنا المرآة بالحقيقة المرة نبدو مشدوهين، وكأنها ليست صورتنا، وكأن هذه التضاريس الخشنة على وجوهنا بفعل عوامل التعرية هي لغيرنا، وكأننا فوجئنا بانصرام ستة عقود والسابع ولى أو على وشك انفراط عقده عدا حبة أو حبتين نتشبث بهم وكأنهم آخر زادنا، وينفجر بركان التساؤلات الغاضبة: أين ذهبت هذه السنين؟ ومن سرقنا في وضح النهار؟ وكيف هرمنا بهذه السرعة المذهلة؟ وما هو الإنجاز الخالد الذي حققناه؟..

وهاكم الحصيلة: أخاديد عميقة، وجه متغضن، جلد ضامر، بقع سوداء، وذكريات مجرد ذكريات، وعضوية فخرية دائمة في نادي القلوب الحزينة والنفوس الحزينة، الحزينة على ما ضاع ومضى ولن يعود، الحزينة على المجهول القاتم القادم قدرا وقسرا، الحزينة بعد أن تكاسلت القلوب والعقول والكلى والعيون، الحزينة بعد أن تآكلت المفاصل والذكريات، الحزينة بعد أن ضاعت الأحلام والأماني والأيام والأسنان، الحزينة بعد أن تساقط الأحبة والخلان، الحزينة بعد أن مات الأمل في مجرد رؤية لمحة أو تذوق نكهة أو الإحساس بلمسة أو سماع نغمة من أيام كنا نعتقد في صبانا أنها مخلدة، وأن الزمن سيتوقف عندها لأجل خاطرنا عن السريان، وكنا واهمين، الحزينة بعد أن مات الأمل في صفح من ظلمناهم ورحلوا، وفي الصفح عمن ظلمونا ورحلوا أيضا، الحزينة بعد أن مات الأمل في نظرة ولو من بعيد على أماكن محيت معالمها، ووجوه نشتاق لرؤياها ولم نعد نعرف

حتى موقفها في سجلات الأحياء، الحزينة بعد أن مات الأمل في نصر حاسم في المعركة الأزلية مع الزمن نبتلع كل صباح حبات العقاقير السامة لعله يهدأ قليلا لكن هيهات.

وأزعم أن هذه المشاعر تعتمل في قلوب كل أو جل (سبعيني) ولد في منتصف القرن الماضي، وأنا هنا أتحدث من المحروسة حيث وضعت الحرب الثانية أوزارها، ولم يكد الناس يتنفسون الصعداء حتى ثار الضباط على الملك وانقلبت الأحوال رأسا على عقب، وكمثال مازلت أتذكر آثار تحولات دراماتيكية طالت حياتنا، حيث كان جدي وأبي يمتهنون إدارة الإقطاعيات الكبيرة الشاسعة لحساب ملاكها كبار الأعيان والباشوات، لكن تقلصت المساحات بقرارات التأميم وضمرت المداخيل وتدهورت الأحوال.

ولعل السماء رأفت بي وجنبتني تجربة فقد شريك الحياة واكتفت بما خصني من الأحزان حيث فقدت أمي في نهاية العقد الأول وفقدت أبي في نهاية العقد الثاني، ولعلمي بقسوة التجربة أشفق على رفاق الرحلة ممن ابتلوا بهذه التجربة الأليمة مبكرا، وعانوا ألم الوحدة اللعين بعد ترك الوظائف والمناصب واستقلال الابناء وصخب الحياة، وقد دعوت وأدعو الخالق كل يوم أن يجنبني هذه الجرعة من الألم لأني رأيت أثرها على وجوه أحبة كثيرين، حيث يصبح الإنسان كورقة نقد كبيرة نصفها مفقود.

رحلة طويلة خاضها هذا الجيل استهلكنا فيها ملك وخمسة رؤساء وحروب وثورات وتحولات جذرية في كل مناحي الحياة: تعليم وثقافة وفنون

واجتماع واقتصاد.

في التعليم نلت تعليما أساسيا معتبرا بكل المقاييس من معلمين رقيقي الأحوال والطباع، نبلاء الخلق متمكنين من علمهم، ورغم مرور ستة عقود مازلت أذكر أسماءهم ومظاهرهم، وقد انهارت هذه المنظومة في منتصف السبعينات، وأصبحت مستنقعا آسنا عفنا تقذف إلى الشوارع كل عام مئات آلاف الجهلة الأميين المتعصبين.

وفي الثقافة والفنون كانت مصر نقطة إشعاع حضاري على كل محيطها: سينما ومسرح وإذاعة وكتب وموسيقى ومعارض تصوير ونحت وعمارة، في طول البلاد وعرضها. وفي نفس التوقيت وعندما طفح الزيت في شرق الأحمر وتم تديين كل شيء وغزتنا ثقافة البوادي وتصحرت الواحة الزاهرة وزحفت عليها الرمال تكاد تخنقها، وبسبب جذور حضارة مدفونة من آلاف السنين مازالت مصر تقاوم رغم الوهن الذي أصابها.

في الاجتماع انهارت قيم المصريين وودعوا قيم سكان الضفاف واستبدلوا بها سلوكيات سكان الخيام، وذهبت الألفة والتراحم والمشاركة والتعاطف والإيثار والسماحة، وحل محلها تعصب وفرز وتمييز وعنصرية وجرائم غريبة واستئساد على الضعيف وجشع ورشوة واغتصاب.

أما عن الاقتصاد فقد جرت تحولات عميقة طالت كل الأنشطة: زراعة وصناعة وتجارة، وانهارت المنظومة بالتدريج حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه ولسنا في حاجة للاستطراد.

ولولا مسحة إيمان وشريك حياة محب مخلص صبور وبسمة حفيد

ورصيد ذكريات الصبا الجميل المحفور في عظام الجمجمة وموروث حضاري وجين من ثقافة المقاومة والقتال والأمل وحب الحياة، لرفعنا راية الاستسلام مبكرا، لكن اللقب السامي يحاصرنا، وكنت أتمنى لو كنت نباتا أو جمادا حتى أتجنب هذه النعوت المقيتة: رجل مسن رجل عجوز، لكنني أفتخر أنني استطعت العبور في هذه البحار الهائجة ووصلت إلى مشارف السبعين.

ظهير اللغة

في المبدأ العلمي المتفق عليه في علم الوراثة، عما ينشأ من نتاج في حال زواج الأقارب المتتالي، هو نفس النتاج في حال ما يتحدث الناس إلى أنفسهم لقرون طويلة، فالنتاج الحتمي في الحالة الأولى هو نسل عليل مشوه يفقد مع الزمن خصائص القوة المطبوعة على شريط جيناته، وفي الثانية يحدث نفس التأثير إذ تتوقف منظومة التباديل والتوافيق، بعد أن يتوقف إنتاج أو ابتكار ألفاظ أو معان أو تراكيب جديدة تتواءم مع العصر ومعطياته، ولا يسمع الناس سوى ما يتوهمون أنها محاورة، وفي الحقيقة هي لا تعدو كونها رجع أصواتهم القادمة من الماضي، وتبدأ المؤشرات الأولى لمظاهر انحطاط اللغة في منتجها الرئيس، وهو الكلمة أو اللفظ (الشائع منه أو المدون)، وهو ناتج الفكر والثقافة السائدة، إإذا كان المجتمع محافظا (وهو تعبير مراوغ أحيانا عن مجتمعات جامدة مغلقة) فلا تسمع سوى قوالب مكررة ومعادة، فيستطيع الإنسان بقليل من الجهد أن يستكمل أي خطبة عصماء يبدأها أي من هؤلاء الذين يدعون أنهم حراس هذه اللغة، وفي الحقيقة أنهم أقاموا حولها سياجا من الظنون والمخاوف، سياج عزلها عن الدنيا وعزل أصحابها، ولولا بعض من اختراقات جريئة محفوفة بالمخاطر هنا وهناك بدءا من شعراء المهجر ومدرسة أبوللو والإرهاصات الأولى في تجديد اللغة، مرورا بمعارك شعر الحداثة وقصيدة النثر، وحتى حروب تشريح النصوص وضحاياها الكثيرين

لولا كل ذلك لكانت هذه اللغة قد دفنت من زمن وتحولت إلى لغة (ليتورجيات) وحتى لا يشهر البعض في وجوهنا السيف المعد سلفا لمن يحاول الاقتراب من هذه التابوهات، فإننا نقول أننا هنا لا نتحدث عن محتوى كتب مقدسة عند أصحابها، ولكننا نتحدث عن لغة وظيفتها الرئيسة هي التواصل بين بشر، بشر يعيشون في مجتمع ويمارسون أنشطة حياتية تتطور مع الزمن كل دقيقة وليس كل عام، وعلى سبيل المثال فإن تسميات كثيرة لمنتجات وأفكار وأنشطة ابتدعها العقل البشري مازلنا حيارى مختلفين في تدبير مقابلها اللغوي، وفي النهاية نضع لها تعبيرات هي أقرب للانطباعات أكثر منها تسميات، مما يضطر البعض إلى فتح الأقواس لحشر الكلمات الأجنبية داخلها منعا للالتباس، وبينما ننعت أي لفظ جديد بأنه (الغريب الدخيل) يتباهى الإنجليز بعدد الألفاظ والكلمات الجديدة التي تضاف لقواميسهم كل عام ويعتبرونه علامة الحياة للغتهم، فلا حياة لبشر دون أن يتوالد الناس، ولا حياة لثقافة دون أن تتوالد اللغة، أما اللغات العقيمة فزوالها مسألة وقت

وعندما قال طه حسين أن اللغة لا تملك البشر، ولكن البشر هم من يملكون اللغة، كان الرجل يرى (ببصيرته) جيش المتنمرين الذين ما لبثوا أن أوقعوا به في أول فرصة واتهموه بأبشع التهم، واللغة حتى تزدهر يلزم لها ظهير داعم، وبالطبع يأتي عدد ألسنة المتحدثين بها في مقام متقدم، لكن ذلك لم يعد يكفي مع مرور الزمن، فلم يعد كافيا عدد المتحدثين بلغة ما حتى نضمن ازدهارها لكن يضاف إسهام هؤلاء وتأثيرهم في مجمل النشاط الإنساني: الفكري والاقتصادي والتقني والاجتماعي والسياسي، والإسهام

هنا أخذا وعطاء، ترجمة من اللغة وإليها، تبادل منافع حياتية مع كل المجتمعات، بالإضافة إلى منظومة بحث علمي حر تدار باحتراف ومندمجة مع مثيلاتها في أرجاء الدنيا..

هذا هو ظهير اللغة الداعم لازدهارها ونموها وانتشارها وتفاعلها مع المحيط البشري، خلاصة القول أن ظهير اللغة هم البشر المنتجين المبتكرين متفتحي العقول المتصالحين مع أنفسهم ومع الآخرين. ولم يلتفت أحد إلى لغة يتحدث بها أكثر من مليار من البشر، إلا بعد أن غزت منتجاتهم الدنيا وأصبحوا قوة اقتصادية هائلة مرشحة لقيادة العالم، ومن ثم اهتمت الدنيا بلغتهم وأنشئت أقسام اللغة الصينية في معظم جامعات العالم، وهم لم يصبحوا كذلك إلا بعد أن انفتحوا هم أولا على العالم وعلموا أولادهم كل اللغات الحية لكن ليس بمبدأ (اعرف عدوك) الذي نعلم به اللغات في مجتمعاتنا متوجسين، ولكن بمبدأ "اعرف وتعلم وأنتج" فتستطيع أن تقود العالم، وذهب شبابهم طلبا للعلم والبحث، وغزوا جامعات العالم المتقدم ونهلوا بلا حساسيات ولا خوف كل ما يستطيعون استيعابه والاستفادة به في بناء بلادهم، واليوم يشكل الصينيون والهنود نسبة معتبرة جدا في المراكز البحثية المتقدمة في جامعات أمريكا وأوروبا، ومعظمهم يستجلبون بمنح من هذه الجامعات للرغبة في مثل هذه الأنماط من الباحثين المثابرين.

والكلمات العربية المنتشرة في لغات كثيرة معظمها كان ثمرة حقبة الازدهار الكبرى، وهي حقبة انفتاح العرب على العالم في أزهى عصور حضارتهم، ولم تنتشر هذه المفردات بغزوات أو حروب بل كانت هي الأنسب والأصلح، ولم يجد الآخرون غضاضة في استعمالها والاعتراف

بأصولها اللغوية. ومن فرط يأسهم من الواقع المحيط بهم وبعد أن سادت أنماط مستحدثة في التعامل في المعلومات والاتصالات والذوبان المتسارع لفارق الزمان والمكان بين البشر، ابتدعت الأجيال الناشئة تعبيرات تخصهم وحدهم وأصبحوا ينقرون على لوحة المفاتيح ويتخاطبون بمفردات غريبة، واكتفى (حماة اللغة وحراسها) بالاستهجان ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث في الظاهرة، فربما أمكن تشذيبها واستيعابها لكن العقول التي تحجرت حولت اللغة إلى تابوه مقدس ممنوع الاقتراب من حروفه لا بالإضافة ولا بالحذف ولا بالتعديل، ساعد على ذلك بيئة الركود الفكري والثقافي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي، البيئة التي تحض على الانعزال والتقوقع والخوف والتوجس بين المجتمعات وبين الأفراد داخل المجتمعات، البيئة التي يتوقف فيها النمو الطبيعي للأشياء الحية وعلى رأسها اللغة، ويبدأ الناس في استنساخ أفكارهم وألفاظهم وهم لا يدرون أنها بضاعة مستهلكة كقطع العلكة التي سبق مضغها، ولعظمتها وفضائها الرحب وشاعريتها المبهرة أنصفها كثيرون حتى من غير أبناء جلدتها، وكانت لهم فيها مباحث قيمة مازالت معينا لكثيرين من طالبي البحث والتحقيق في قضية تجديدها، وهؤلاء لم يسلموا من تهم ألصقت بهم وبأهدافهم على مر العصور، ألصقها بهم مدعو الدفاع عنها وهم في الحقيقة يدفعونها دفعا لتصبح فقط لغة (ليتورجيات)

متوالية القهر

أعترف بأنني في معاناة شديدة، وأحاول لململة أفكاري المبعثرة منذ أكثر من عام في محاولة لفهم ما حدث ويحدث في بلادي، علما بأنني لم أكن يوما معزولا عن الشارع، بل أعيش وسط الناس متصلا بهم اتصالا حيا ومباشرا ويوميا، متصلا بكل أطياف المجتمع وطبقاته دون استثناء، كما أعترف بأنه وطوال العقد المنصرم كنت أسيرا لهاجس واحد سيطر على أفكاري، هذا الهاجس كان هو: أن انفجارا سيحدث في بلادي، لكن ليس في هذا الاتجاه المختلف المفاجئ، وكان سهم البوصلة يشير بقوة إلى حرب أهلية ستنفجر بين عنصري الأمة المصرية، فقد كانت موجات الاحتقان الطائفي تزداد تتابعا وهياجا يوما بعد يوم، وكانت نتائجها المتوالية طيلة السنوات العشر الماضية – وقبلها – شديدة الوطأة على مكون أصيل من هذه الأمة العريقة فقد اتخذه المناوئون للنظام كوسيلة سهلة ودنيئة للتحرش به والانتقام منه.

وعلى مدى طروحات عديدة في منابر داخل وخارج مصر حملت هذا النظام كله مسئولية إراقة دماء إخوة لي في الوطن ذهبوا ضحايا لمتوالية القهر الطويلة التي عانى منها المصريون –كل المصريين – نعم متوالية قهر طويلة، فالنظام قهر الناس واستعبدهم والناس قهروا بعضهم، ولأن القهر يستلزم آليات للتمييز والفرز فقد تفنن المصريون في ابتداعها –كما في كل المجتمعات المقهورة – نعم ابتدعوا وسائل كثيرة لتفريغ شحنة القهر الهائلة

التي بثها النظام في عظام الناس، وأعاد الناس بثها في بعضهم بتصنيفات عديدة، منها الدين والجنس والعرق والزي واللقب وغيره وغيره، ويوجد في بلادي أكثر من عشرين علامة توضع على السيارات لتمييز أصحابها عن بقية البشر الراكبين والمترجلين، ويوجد في بلادي كم من الألقاب الزائفة والمناصب الهلامية لا مثيل له في الدنيا بأسرها يتخذها المصريون وسيلة للتمايز الكاذب بعضهم على بعض، ويوجد في بلادي وسائل أخرى كثيرة لتفريغ شحنة القهر التي يبثها النظام في الناس ويعيد الناس بثها في بعضهم البعض، موجات احتقان وعنف وفساد وفوضى في كل مناحي الحياة، يبثها المعلم في التلاميذ ويبثها الرئيس في المرؤوس والجار في جاره وحتى الزوج في زوجته وأولاده.

كما وأن استيعاب ما جرى في بلادي يحتاج إلى رؤيا متعددة الزوايا، ولكن من يستطيع أن يرى وسط هذا الضباب الكثيف؟؟ لذا أنصح القراء بتوخي الحذر في مطالعة هذا الطرح – وغيره في هذه الظروف – لأن الكتابة من قلب الحدث لها مخاطر عديدة، منها الانفعال وتأثير الميديا وتعقيدات المشهد والتطور المتسارع للأحداث، بالإضافة لنقص المعلومة الأمينة المحايدة، ولا ننسى الخلفية السياسية أو الأيدلوجية للراوي (والمتلقي أيضا)، كما نؤكد على ضرورة الفرز الذكي بين ما نقرأه وما نشاهده وما نسمعه، وهل هي تحليلات محايدة أم هي انطباعات أو تمنيات أو تصفية حسابات أو صورة من زاوية ضيقة يبثها طرف أو أطراف لا نستطيع تبرئتهم من شبهة انحياز قد يوصم بها الجميع في هذه اللحظة من التشنج والأصوات المبحوحة، بالإضافة لعامل مهم وهو ركوب الموجة من محترفي

ركوب الموجات وتحويل اتجاهها ليصب في صالح أهدافهم الخبيثة وتفريغ هذا الحدث من محتواه النقي.

والذين يقولون بأن شهداء ٢٥ يناير كانوا باكورة الضحايا لهذه الثورة نقول لهم أن شهداء القطارات المحترقة وشهداء العبارات الغارقة وشهداء قوارب تهريب البشر وشهداء الفتن الطائفية وتفجيرات الكنائس وغيرهم وغيرهم من شهداء الفساد، كل هؤلاء كانوا ضحايا هذا النظام الفاشل وتابعية المستفيدين من غبائه السياسي والأمني، وكل هؤلاء الضحايا قبل ٢٥ يناير كانوا المحفز والمحرض والدافع الرئيس لهذه الثورة، وما هؤلاء الأعزاء الذين دفعوا دمائهم في الميدان الشهير سوى ضحايا المشهد الأخير لهذا النظام. وعندما اقول هذا النظام لا أقصد رأسه فقط ولكني أقصد كل الهياكل الفاسدة التي صاحبته، كل الوجوه التي كانت على الساحة، كل الأسماك النافقة التي كانت طافية على السطح، في الحكم أو خارج الحكم في النظام أو خارج النظام، معارضين وموالين، كل الوجوه الكالحة التي ساهمت في إضفاء شرعية زائفة على ممارساتة الغبية التي كادت أن تقذف بنا إلى المجهول.

لكن يظل السؤال الكبير: ماذا حدث ومن هؤلاء؟.. وأعتقد بأن هذا السؤال سيظل مطروحا لعقود طويلة، نظرا لمعطيات انقلبت انقلابا على كل النظريات المعروفة عن الثورات ومسبباتها ووسائل تنفيذها، فالحدث صدم كل أجهزة الرصد الاستراتيجي في كل الدنيا، ورأينا كيف تخبطت أقوى أجهزة الاستخبارات في العالم وفشلت حتى في توقع سيناريو واحد لساعة واحدة قادمة، وكان مسئولوها يلهثون متخبطون ونظرة على الموقف

الأمريكي المضحك كمثال قد توضح الصورة أكثر، وربما تكون إجابة بسيطة بعيدة عن التعقيدات قد تفي بالغرض فهناك شباب امتلكوا ناصية التكنولوجيا ووظفوها لاقتلاع نظام من جذوره ونجحوا بعد أن دفعوا ثمنا عادلا لحرية أمة فالحرية لا تعطى للأمم هبات أو منح.

أما من هؤلاء؟ فبكل المقاييس هم ليسوا قطعيا من الجياع هبوا من أجل ملء فراغ البطون، فكل الشواهد على الأرض تكشف أن هؤلاء الشباب مستخدمي هذه الوسائل التقنية الحديثة – المكلفة نسبيا – كانوا على الأقل من الطبقة الوسطى أو ربما هم الشريحة الأعلى منها، ونظرة سريعة على مظهرهم (وأنا هنا أتكلم عن الموجات الأولى لهذا التسونامي العجيب) ربما تعزز المقولة، شيء آخر أنهم لم يكونوا فوضويين أو سفهاء بل كانوا منظمين واعين (ومازلت أتحدث عن الموجات الأولى منهم)، وفي هذا السياق لا أجد حرجا من أن ألوم نفسي؛ ففي مرحلة ما عندما كنت أرى تجمعاتهم في أي مكان وأستطلع مظهرهم وأزياءهم وأسمع أحاديثهم كان اليأس يتسرب إلى قلبي.

وفي هذا السياق وكما تحدثنا عن متوالية القهر يجدر أن نتحدث عن متوالية الحرية، فالشاب الأمريكي الذي بث فيه مجتمعه روح الحرية أعاد بثها فكرا مبدعا وابتكر آلية للتواصل الإنساني على اتساع الكوكب، هذه الآلية التي أشعلت ثورة فريدة في التاريخ ربما تغير وجه هذه الأمة وربما تغير وجه العالم، وهذا هو الفارق بين ناتج متوالية القهر وهو التعصب والعنف والحقد والإهانة، وناتج متوالية الحرية وهو الحياة والكرامة والإبداع.

وهؤلاء الشباب الغاضب أيضا هم من كفروا بكل من على الساحة كفروا بأحزاب وسياسيين وتيارات لم تنتج لنا سوى أطنان من الهراء وملوثات الماء والهواء وشعارات جوفاء طنانة، وطيلة نصف قرن احتلوا الواجهة مع الأنظمة المستبدة وتبادلوا الأدوار، وضاعت أرض وضاعت قضايا وضاعت قيم أصيلة ونبيلة وبرزت على الساحة قيم مشوهة، وأعتقد أنه آن الأوان ليبتعد (عواجيز الفرح) وكل العواجيز ليفسحوا طريقا لهؤلاء الشباب الأنقياء ليصيغوا مستقبلهم، مستقبل جديد لا تظهر فيه هذه الوجوه الكئيبة وتلوث ثورة هؤلاء الشرفاء، تلوثها بأفكارهم التي عفا عليها الزمن أفكارهم الخبيثة التي بثت الحقد والغل بين أبناء الوطن، نعم كفر هؤلاء الشباب بكل هؤلاء الذين يهدفون لدخول مصر النفق المظلم الطويل الذي دخلته شعوب من عقود ولم تخرج منه بعد، الذين يحاولون إعادة إنتاج حلقة جديدة من متوالية القهر ليعيش المصريون حقبة أسوأ من كل الحقب السابقة.

هذا المقال يرجع تاريخ كتابته لما بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١

ثورة نعم.. مؤامرة (نعمين)

ولنا أسبابنا التي نعتقد بوجاهتها، وربما يشاركنا في هذا جزء من القراء، لكن قبل أن نخوض في هذه الأسباب يجدر أن نذكر القارئ أولا: أن الأحداث الكبيرة تولد كأجنة لا تتضح ملامحها إلا بالتقادم الزمني، وعليه فلسنا بصدد إصدار أحكام على أحداث لكنها محاولة للإدلاء بدلونا كاجتهاد متواضع في تفسير هذا الطلسم المحير للجميع، ثانيا: لنا تعريف بسيط للثورة قد يشاركنا بعض القراء في الاتفاق عليه (الثورة هي الفعل الجماهيري الكثيف الذي ينتج عنه تغيير أشخاص أو أنظمة ثبت فسادها ويكون لهذا التغيير أثر مجتمعي إيجابي على المدى الطويل)

وما دام الطرح يتناول هذا الحدث بشقيه المتلازمين: الثورة والمؤامرة؛ فعلينا محاولة الاتفاق على تعريف المؤامرة، ونقترح هذا التعريف للمؤامرة ربما يوافقنا القراء عليه (المؤامرة هي فعل مزور مخطط له وممول مسبقا من أشخاص أو كيانات من الخارج أو الداخل لتحويل مسارات الأحداث لتصب في صالحها).

مما سبق يتضح أننا نبحث في فعل لم تظهر بعد ملامحة الحقيقية رغم مرور سنين ست، وأن هذا الفعل اختلف كثيرون في وصفة وتقييمه وتحليله البعض قال بثورة والبعض قال بمؤامرة وآخرون وأنا منهم يعتقدون بأنه في لحظة ما ـ سنتطرق إليها ـ تقاطع خط الثورة بخط المؤامرة ونشأت لحظة فارقة حولت الحدث في مرحلة من مراحله إلى مركب شديد التمازج من

الفعلين بحيث لم يعد بالإمكان الفصل بينهما وقتها.

ونبدأ بالحديث عن الثورة ونعود إلى الميدان الشهير الذي أصبح أيقونة الثورة كأكبر وعاء احتجاجي عرفته المنطقة، حيث توافد عليه وبعفوية ودون سابق تدبير جحافل بشرية معظمهم شباب، وبكل المقاييس لم يكن هؤلاء قطيعا من الجياع هبوا من أجل ملء فراغ البطون، لكن هؤلاء كانوا شباب من مستخدمي هذه الوسائل التقنية الحديثة – المكلفة نسبيا – كانوا على الأقل من الطبقة الوسطى أو ربما هم الشريحة الأعلى منها، ونظرة سريعة على مظهرهم (وأنا هنا أتكلم عن الموجات الأولى لهذا التسونامي العجيب) ربما تعزز المقولة، شيء آخر أنهم لم يكونوا فوضويين أو سفهاء بل كانوا منظمين واعين (ومازلت أتحدث عن الموجات الأولى) وفي هذا السياق لا أجد حرجا من أن ألوم نفسي ففي مرحلة العقد الأول من الألفية عندما كنت أرى تجمعاتهم في أي مكان وأستطلع مظهرهم وأزياءهم وأسمع أحاديثهم كان اليأس يتسرب إلى قلبي، هؤلاء احتشدوا بهدف واضح ومحدد وهو إسقاط نظام، ولو تمت الأمور في هذا السياق لكان لهذه الثورة شأن آخر مغاير تماما لما آلت إليه الأمور، نعود لنؤكد بأن كل من يدعي أنه نظم أو جيش أو حشد لهذا الحدث الجلل فهو كاذب كل ما في الموضوع أن شرارة اندلعت وسط كومة هشيم مبللة بسائل سريع الاشتعال.

أما عن المؤامرة وبعد أن ظهر للعيان أن ما يحدث ليس مجرد مظاهرة ستفرقها الشرطة بخراطيم المياه وأن ثمارا حان قطافها عتدئذ خرج سكان السراديب أصحاب مذهب التقية الخبيث وكعادتهم تخلوا عن حليفهم

النظام عندما رأوه على وشك السقوط ولحقوا بالقطار في محطته الأخيرة وركبوه بأسلوبهم الاحترافي وصدق بعض السذج خبثهم العميق والبعض الآخر تحالف معهم بمبدأ عدو عدوي صديقي في الوقت الذي كان كل طرف يبيت للآخر إقصاءه عند أول فرصة..

هذا عن المؤامرة نعود إلى المركب الناتج عن امتزاجهما أي امتزاج الثورة بالمؤامرة أي لحظة تقاطع خط الثورة بخط المؤامرة فقد بدأ هؤلاء الذين لحقوا بقطار الثورة في محطته الأخيرة كما أسلفنا بدأوا في إلقاء ركابه الأصليين من النوافذ، وبدأ العنف يطفو على السطح وبدأت مؤامرات الإقصاء وحانت لحظة الاستيلاء على الثورة بالكامل حين استقدموا أحد مشايخهم من المنفى، مستدعين مشهد استدعاء الخميني من باريس ليلقي خطبة التدشين ومباركة عملية السطو، وهنا بدأ المصريون الذين خارج الميدان استشراف الصورة لأن الثوار داخل الميدان ربما وبسبب الصخب لم يعوا حجم المؤامرة، بالإضافة لتدخلات وتحالفات خارجية بدأت مظاهرها تطفو على السطح بقوة، حيث بدأ الرعاة في الخارج التدخل كل لحساب رعيته في الداخل، وبدأت الخلايا النائمة المسلحة تنشط في سيناء استعدادا لساعة الصفر التي بدا وانها قد اقتربت.

وعندما فشلت عملية السطو الخبيث تحولت لعملية سطو مسلح، وجرت في النهر دماء كثيرة، وجرى إجهاض جنين الثورة حفاظا على حياة الأم التي تسمم حملها بسبب هؤلاء، ولنفس السبب أجهض جنين الثورة في تونس، وحيث لم يتوقعوا سيناريو الأحداث استفاق الرعاة على خطر ضياع أموالهم فعدلوا خططهم في بقية الأقطار، سلحوا مفارزهم ورؤوس

جسورهم ليقتنصوا أي غنيمة تحفظ ماء وجوههم الذي أريق، ودمرت سوريا واليمن وليبيا ولم يقتربوا من حلفائهم في المغرب والسودان، ولم يقتربوا من الجزائر لخبرة جيشها في تجربة مشابهة سبقت في التسعينات، ولم يحاولوا مع لبنان لأسباب خاصة نعد بمحاولة شرحها في طرح مستقل.

بالطبع لا يمكن استيعاب ما يمكن أن يشغل مجلدات في مجرد مقال، لكنها محاولة للإجابة عن السؤال المحير هل هي ثورة؟.. أنا شخصيا أقول بملء الفم: نعم وهل هي مؤامرة؟، وأجيب بملء الفم وأكررها نعم.. نعم أي نعمين.

الاستفتاء الكبير، والاستفتاءات الصغيرة

الأمل في استفتاء كبير على كل ظهر الكوكب، استفتاء يقرر فيه كل سكانه إن كانوا يرغبون في العيش معا بسلام شركاء متساوين، ويقررون فيه إن كانوا يقبلون بعضهم بعضا مختلفين في اللون والعقيدة والمذهب والعرق والجنس والثقافة، وأن كل فرد على ظهر هذا الكوكب مخلوق حر وله حق الحياة متفردا ومختلفا، وهو مالك أصيل للبقعة التي يعيش عليها بصك موثق منح له يوم سمح له بالوجود ومنح لقب إنسان، استفتاء يقر فيه الجميع بأن الحفاظ على هذا الكوكب بيئة وبشرا هو واجب محتم اجباري على الجميع، وأن سلامة الإنسان وأمنه ورفاهيته هي الغاية السامية التي يجب أن يعمل من أجلها كل البشر، وأن العمل والكد والجهد والبحث هو السبيل الأوحد ولا غيره لإعمار هذا الكوكب، فإن قالت الأغلبية: "نعم" لهذه المبادئ فإن ذلك يستلزم ترجمة هذا التوافق إلى قوانين حاسمة وآلية قوية ومهابة ترسخ وتفعل كل هذه المبادئ السامية والمقاصد العليا حتى تستقر المجتمعات ويسود الأمان. فلطالما وجدت شبهة تمييز أو فرز في أي مجتمع بدعاوى مزورة وخصوصا تلك المصبوغة بالقداسة والهيمنة العرقية والقبلية، طالما وجدت هذه الدعاوى فالانسجام المجتمعي إلى زوال شئنا أم أبينا، مهما دشنت دساتير وسنت قوانين ورفعت شعارات، وتصبح الأقليات الدينية والعرقية ضحية يومية على مذبح الكذب المستدام عن المساواة المزعومة والعدالة الكاذبة، ومن كثرة ترديد هذه الدلاسات

يصدقها أصحابها، وكل هذه الدعاوى للانفصال في طول الكوكب وعرضه بدءا من البوليساريو إلى الأمازيج إلى الأقباط إلى الأكراد إلى النوبيين في الشمال والجنوب إلى الفور وغيرهم وغيرهم كثيرين، كل هذه الدعاوى أعراض للمرض المستعصي، مرض الهيمنة الدينية والعرقية والثقافية التي عانت وتعاني منها البشرية منذ فجر التاريخ، مرض التعصب والشعوبية واحتقار البشر بسبب أصولهم وأديانهم وثقافاتهم ومنشئهم.

ونعود إلى الساحة إلى آخر أعراض هذا المرض المزمن آخر هذه الاستفتاءات الصغيرة ونتساءل إذا كان الكرد يتمتعون بالعدل والمساواة في منظومة يتماهى فيها الجميع فلماذا يطلبون الانفصال؟ ففي دولة يتلاعب فيها ملالي الحوزات وشيوخ الوقف بالساسة ويحركونهم كعرائس الماريونيت ويديرون ميليشيات طائفية من خلف الستار.. ترى هل يمكن أن تتماهى مكونات هذا الوطن وتتمازج وتندمج، أم يتقوقع كل مكون داخل جيتو ثقافي واجتماعي وديني ويعيش الناس متنمرين بعضهم لبعض، ويصبح القتل عادة أدمنها الناس وأدمنوا الفرجة اليومية عليها، فالدولة العراقية مقسمة نفسيا وعرقيا ومذهبيا منذ السقوط العظيم، فما حدث في العراق لم يكن ثورة شعب على حاكم، لكنه كان ثورة عرق على عرق، ثورة عرقية مذهبية بامتياز، تحالف الشيعة والأكراد وهم الأغلبية مع الأمريكيين لإسقاط حكم السنة الأقلية وتدمير كل مؤسسات الدولة وإعدام حاكمها، وقبض الشيعة الثمن المتفق عليه كاملا، ثم بدأوا بممارسة نفس الدور دور الهيمنة العرقية المذهبية على الجميع والعودة إلى المربع الأول، وما التشدق بوحدة العراق إلا مقولة باطلة تجيز استمرار القهر والهيمنة، وما هو الضير

في استقلال كردستان وهي مستقلة بالفعل ثم ما هو ذنبهم في الحرب المستعرة بين أتباع علي وأتباع عمر والتي لا يبدو في الأفق القريب، ولا البعيد نهاية لها، لقد استغلهم الجميع أبشع استغلال لوحوا لهم من بعيد بحلم الدولة وسخروهم آلة حادة في جنوب أعدائهم، سخرهم العثمانيون والروس والإنجليز والأمريكيون في كل مغامراتهم في المنطقة وحتى العرب، ثم أدار الجميع لهم ظهورهم، وما الاستفتاء الذي جرى سوى كشف إرادة يعرفها الجميع فالكرد يريدون دولة هذا حقهم التاريخي في تقرير مصيرهم طبقا لكل المعايير، فهم شعب ذو خصائص مشتركة ويعيش في أرض ذات حدود معلومة وله تاريخ وله مقومات، والمرتعبون من هذا الاستفتاء يعرفون أن الرغبة الكامنة في قلب كل كردي هي دولة ليست عاصمتها أربيل وإنما عاصمتها ديار بكر، أن المناطق الكردية المغتصبة في سوريا وإيران وتركيا والعراق كفيلة بدولة تستطيع في عقد واحد من الزمن أن تسبق كل هؤلاء، فهم مجتمع عامل ومعمر لا يميل للتطرف الديني، ونظرة سريعة على نجاح مهاجريهم واندماجهم في مجتمعاتهم الجديدة ودور المرأة المميز ربما تدلنا على مستقبل واعد لدولتهم المأمولة.

إن الخيار الطوعي للشعوب في الانضواء أو الانفصال في أو من كيانات هو الحل التوافقي الأمثل للقضية، أما الهستيريا والتهديد والوعيد الذي يطلقونه لن يسفر عن شيء يذكر، اللهم إلا عقاب شعب أظهر رغبته على الملأ موثقة بالأرقام، ومن ثم يرتفع جدار الكراهية أكثر مما هو عليه، ولم يتعظوا من تجارب الأمم أن الاستحواذ والهيمنة على الشعوب هو أسلوب فاشل مآله مصير محتوم هو الانفصال إن عاجلا أو آجلا، انهارت

الامبراطورية البلشفية وانفرط عقدها وتشظت إمبراطورية آل عثمان ولولا أتاتورك لانمحت كلها من الوجود، وانفصلت واستقلت شعوب في أوروبا ولم تعاقب بالحصار والاتهام بالخيانة، بل تناغمت وتكاملت مع جيرانها وأصبحت الأحوال أحسن مما كانت عليه واستفادت كل الأطراف، ولم يقيموا مناحات ولم يرددوا هذه الشعارات الجوفاء عن الوحدة المزعومة وفرضها بالقوة. وفي نفس السياق تعلن كتالونيا إجراء استفتاء على الانفصال عن إسبانيا، ولاحظوا الفرق في التعامل مع الحدثين وسنرى شعوبا تعرف مصالحها دون عنتريات وشعارات كاذبة وأشخاص كاذبين يدعون البطولة والدفاع عن الوحدة، وهو دفاع كاذب هذه هي نتيجته على الساحة، بدءا من السودان وانتهاء بليبيا مرورا بالعراق واليمن وسوريا، وفي الوقت المناسب ستتزايد الدعوات بالاستفتاءات الصغيرة والكبيرة كل يوم.

لعبة الموت

أيام عشر من المتعة والإثارة والجمال والتأمل عشناها في الشهر المنصرم، وربما لم يلحظها كثيرون وخصوصا جماهير رياضات التعصب والغضب والعنصرية المقيتة، وعلى رأسها بالطبع تلك التي يركلونها بأقدامهم وتحولت الى مستنقع آسن من الفساد والسياسة والمقامرات والمناورات مستنقع رائحته باتت تزكم الأنوف.

أيام عشر من المتعة والإثارة تجلت فيها عظمة الطموح الإنساني والجمال الإنساني، عظمة الهبة الإلهية التي جبل عليها الإنسان دون سائر المخلوقات، وهي الغريزة المطبوعة على الجين البشري، غريزة الإتقان والسعي إلى الكمال والتطلع المستمر إلى الأجود والأفضل، وهذه الفطرة قاسم مشترك في كل البشر لكنها تظهر وتختفي تعلو وتهبط، ووجودها نسبي ونموذجها القياسي يختلف من شخص إلى شخص، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن عصر إلى عصر، ودرجة تفعيلها مرتبطة بالثقافة السائدة ودرجة الرقي وحال التعليم في المجتمعات.

أيام عشر رأينا دقة التنظيم والأناقة الإدارية المبهرة والحزم العادل والتوقيتات المقدسة إوالجماهير المؤدبة المهذبة التي شجعت الفائز ولم تحبط الخاسر، لا هتافات عنصرية ولا استقطاب سياسيا فهم في محراب رياضة لا يجب تدنيسه بمثل هذه ترهات.

أيام عشر رأينا منشآت تجلت فيها عظمة فنون المعمار والتنظيم

والإدارة والاستخدام والنظافة والأناقة والمتانة والتخطيط المبهر.

أيام عشر رأينا فيها الإعجاز الإلهي معادلة الأنوثة والجمال والقوة، رأينا كيف تمتزج العناصر الثلاثة ليظهر الإنسان في أحسن تكوين، رأينا الجمال الإسكندنافي الهادئ الناعم ورأينا الجمال الإفريقي المتفجر الصارخ، رأينا النسخ (الأورجينال) للبشر ولا نملك إلا أن نسبح للخالق الأعظم للجمال والقوة.

ولولا هذه الفطرة الإنسانية لما تقدم المجتمع الإنساني خطوة واحدة إلى الأمام، ولولاها لما خرجت إلى النور كل هذه الابتكارات والإبداعات التي سهلت حياة الناس على كل الكوكب، إذ أن الطموح الإنساني وأحيانا الجموح الإنساني هو الذي دفع الإنسان إلى المثابرة وعدم اليأس للوصول لهكذا نتائج لم تكن تخطر يوما على قلب بشر، طب وهندسة واتصال واقتصاد وكل مناحي النشاط الإنساني. فلم يكن متخيلا أن يكسر العداء الجامايكي حاجز الثواني العشر في سباق المائة متر، ويجري بسرعة ستة وثلاثين كم في الساعة، ولم يكن متوقعا كسر أرقام الوثب العالي والطويل والقفز بالزانة، لكنه الطموح الإنساني أو الفطرة الراقية الساعية إلى الكمال والتفوق، وهي الوسيلة الوحيدة لإعمار الكون وتخفيف معاناة سكانه وخدمة البشرية، وفي البطولة القادمة سيتم كسر الأرقام، وفي الساعات القادمة سيكون هناك ابتكارات ومخترعات واكتشافات وإبداعات جديدة، وهكذا بفضل هؤلاء المبدعين الطموحين يعيش كوكبنا وتتقدم البشرية وتخف معاناة مريض ويسد رمق جائع وتستر عورة عار وتضيق المسافات بين الناس..

نعم بفضل هؤلاء الذين استثمروا الهبة الإلهية والفطرة الإنسانية الساعية على مدار الساعة الى العمل والبحث والتجويد. أما المجتمعات التي أطفأت جذوة البحث والابتكار والطموح واستبدلت بها ثقافة التواكل والرزق الساعي إلى الأبواب، هذا حالها لا يحتاج إلى شرح أو تأويل، أصبحت عالة على البشرية، فكلها موت ومخيمات وديار خربة وإنسان مهان وشوارع كأنها غابات حيث لا قانون ولا نظام، فوضى وعنف ورشوة وأخلاق متردية ووجوه عابسة مكفهرة وصراعات إثنية ومذهبية وإعلام فج مبتذل سفيه،

فكيف يخرج من هذه المنظومة: بطل أو مبتكر أو مبدع أو طامح إلى إنجاز، أما السباق الحر الوحيد المتاح هو السباق للخلف. وكل من أجاد وثابر حصل على جائزته التي يستحقها، ليس فقط بالرقم الذي حققه جريا أو وثبا أو رميا، ولكن تطبيقا للقانون الإلهي الأزلي.. من يجيد يستحق بغض النظر عن لونه أو دينه أو عرقه، وكافأ الأبطال المجتمعات التي رعتهم واحترمتهم وساوت بينهم بالذهب والفضة والبرونز، ورفعت رايات بلادهم عاليا وعزف نشيدهم الوطني، في الوقت الذي لم تحصل مجتمعات الفرز والتمييز والعنصرية والموت إلا على فتات وأغلبه من جنسيات مشتراة تحت علم مستأجر ووطن بحق الانتفاع.

هذه يا سادة هي أصول لعبة الحياة: التنافس الشريف والعرق والصبر والاحتمال، وهي لعبة التقدم والازدهار، أما نحن فلا نلعب سوى اللعبة الوحيدة التي لا نجيد غيرها على مر العصور (لعبة الموت)

الفهرس